عبد الله انيس الطباع
مجاز في الدراسات الشرقية

الحب والغزل

بين الجاهلية والاسلام

إن الشباب حجة التصابي
روائح الجنة في الشباب
أبو العتاهية

عبد الله أنيس الطبّاع
مجاز في الدراسات الشرقية

الحُبُّ والغزل

بين الجاهلية والإسلام

إنّ الشباب حجّة التصابي
روائح الجنة في الشباب

ابو العتاهية

الإهداء

إلى الذين أقاموا هيا كلهم في حمى الجمال ..
حيث قدموا مناسك عِبادتهم : حِرمانا وحنينا ونحيبا ..
إلى شعراء الحب العربي ..
أهدي هذا الكتاب .

المؤلف

مقدمة الكتاب



بين الحب والغزل، ما بين الشعور والتعبير من علاقة.. فإذا كان الحب فرحاً وألماً، ابتساماً ودمعاً، وصالاً وحرماناً، لقاء وشوقاً إلى اللقاء، واقعاً نتحسسه أو ذكرى نسترجعها.. فالغزل هو التعبير عن كل ذلك، عن بهجة المحب حين يفرح، وعن أساه حين يتألم، وعن أمله حين يبتسم، ورجائه حين يبكي، وعن تفاؤله حين يتصل بانسانه، وعن تشاؤمه حين يحرم منه، وعن سعادته حين يلقـــاه، أو حنينه حين يشتاق الى لقائه، انه صورة لواقع، وترجيع لذكرى..

وإذا كان الحب أزاهر تتفتح، أو أشواكاً تنمو، وطفولة تعلن رحيلها، وشباباً يعلن مقدمه، فجراً يتلاشى وراء ضباب الابهام، وربيعاً يطل من خلال سحب المجهول.. فالغزل هو الآخر، عبق الزهور حين تتفتح، ووخز الشوك حين يجرح، ونهاية الطفولة حين ترحل، ومطلع الشباب حين يصول، وأفول الفجر حين يولي.. وبزوغ الربيع حين يشرق.. لتشرق معه حياة الكائن، على النحو الذي تكون فيه حقيقة، ويكون

الانسان معهـــا انساناً مزيجاً من تراب ونور ، وانجذاباً الى الى الأرض والسماء ، الى المادة والروح ..

والحب انشودة الوجود منذ كان الوجود .. هو اللحن الذي تعالى من اعماق الأزلية ، ليظل متعالياً حتى نهاية الأبدية .. تختلج به الأعمـــاق ، وتضطرب به الجوانح ، وتسمو به الأرواح .. ويطلقه المحبون على شفاههم في شبه صلوات ، وشبه تراتيل ،وشبه تسابيح .. إنّ كل نفس مهما اقلقتها متطلبات الأيام ، أو واتتها ، لتنشده اليه في ارتياح وشغف ، يشدها الى ذلك تعاطف كل نصف الى نصفه ، واندماجه فيه وغيبوبته .. انه الطريق الى الكمال .. كمال هذا الاندماج وتلك الغيبوبة ..

وما دام الحب شعوراً ، والغزل تعبيراً ، فالذي تقتضيه حقائق الاشياء ، ان يكون الشعور سابقاً على التعبير ، ليكون الغزل كفنّ متأخراً عن الحب كعاطفة ..

ان الشعور واقع وجداني ، انه تعبير صامت ، قد يظهر في نظرة العين حين يتأمل المحب انسانه ، أو في ابتسامة الثغر حين يتودداليه ، وفي انبساط الأسارير حين تداخله نحوه دفقة الحنان .. وفي هذا كله تعبير من نوع خاص ، لا يستوي غزلاً او ما قاربه الا اذا تناول المحب هذه المراتب من الشعور بشيء من وصف ، وشيء من كلام ، ليرسم فيه تلك النظرات وهاتيك الابتسامات ، وهذه الأسارير المنبسطة ، وما يوافقها من أمر ذلك التأمل وذاك التودد وهذا الحنان .. ولا بدّ أن يكون هنـــاك امتداد في الزمن وارتقاء في الفن ، بين هذين اللونين من التعبير ، التعبير

الصامت المتكلم ، والتعبير المتكلم الذي يعلن عن نفسه في قوة وشدة ، وشيء من غناء .. والى هذا استندنا في تأريخنا للغزل العربي ، فنحن لا نرى في الجاهلية غزلاً بالمعنى الصحيح لهـــذه الكلمة ، وانما هو كان ذلك بعد الجاهلية في العصور التالية ..

وقد تعرضنا في هذه الدراسة لمفهوم الغزل في اللغة . ومفهوم الحب في الفلسفة وعلم النفس ، فألممنا بنظرية افلاطون وابن سينا واخوان الصفا وستاندال فيه .. وميزنا بين ألوان الغزل العربي : بين عذري ، وحضري ، وحضري معتدل ، وآخر متطرف .. واتخذنا جميل بن معمّر مثالاً للغزل العذري ، وعمر ابن ابي ربيعة نموذجاً في الغزل الحضري .. وكنا أمينين ههنا شأننا في الحلقتين السابقتين ، من سلسلة الشعراء الاعلام(١) ، فقد أرخنا لحياة الرجل منهما ، وحيـــاة الشاعر .. وأتبعنا ذلك كله بتحليل لجملة من قصائدهما ، إتماماً للفائدة ، وتوخياً لاستكمال البحث .. وكانت لنا خلال ذلك نظرات سباقة فيما يتعلق بغزل امرىء القيس وابن ابي ربيعة ، أرسخها عندنا وقفتنا الطويلة للشاعرين ، وبحثنا المستمر في الأسلوب عندهما ، والذي نراه انه اسلوب متقارب ان لم يكن واحداً .

وشئنا ان نثبت في نهاية الدراسة شيئاً من المنتخبات الشعرية كنماذج يرجع اليها من أراد زيادة في الاطلاع .. واننا نرجو من الله ان يوفقنا دائماً لخدمة أدبنا العربي على النحو الذي يرضي العلم والعلماء ..

المؤلف

(١) للمؤلف تناول فيه التأريخ لأعلام الشعر العربي في الجاهلية.

دراسة فلسفية

●

الحب والغزل

الحب روح الحياة ، والغزل نشيده الاقوى ، ولحنه المبدع ، والغزل في اللغة هو التقرب الى النساء ، والتودد اليهن ، ويقول الزجاجي في المخصص (١) « اصل المغازلة الادارة والفتل ، لادارته عن امر ، ومنه سمي الغزل لاستدارته وسرعه دورانه ، وبه سمي الغزال لسرعة عدوه ، وسميت الشمس الغزالة لاستدارتها وسرعتها . »

فالغزل اذاً هو اخراج الكلام ، وادارته على نحو معين قصد الاستمالة والاستهواء . ويرى علماء اللغة ان مادة « الغزل » تشمل ثلاثة معان ، غَزَلَ الصوف بمعنى فتله خيطاناً ، وغَزِلَ بالمرأة اي حادثها وافاض بذكرها ، وأغزَلَتْ الظبية اي صار لها غزال . وهكذا نجد ان موضوع الغزل هو موضوع الحب ، فما هي ماهية الحب ، وما هو رأي الفلاسفة فيه ؟

---

(١) ص ٥٤

الفلاسفة والحب .

اختلف الاقدمون كما اختلف المحدثون في نظرتهم الى الحب كعاطفة انسانية ، اختلفوا في مصدر هذه العاطفة : اما في القديم فأفلاطون اشهر من تحدث في الحب ، فقد افرد له بحثاً خاصا في كتابه المعروف باسم المائدة « Le Banquet » ويروي اسطورة هذا الفصل ابولودورس « Appolodorus » اذ يؤكد لاحد اصدقائه ، بأن وليمة ضمت سقراط ، واجاثون والكيبادس ، وفايدروس ، وباوسانياس وغيرهم ، ودار الحديث فيها عن الحب اذ بدأه « فايدروس » فمجد الحب ، وأقر بأن إله الحب احق الآلهة بالعبادة ، ثم تكلم بعده « باوسانياس » « Pausanias » الذي رأى بأن هناك إلهتين للحب ، الالهة الاولى هي الكبرى وليس لها ابوان فهي سماوية علوية وهي بنت الاله زيوس(zeus) والالهة ديون (Dione) وهي الالهة الارضية ، وبعد ان يعرض « ابولودورس » جميع نظريات هؤلاء الذين تبادلوا الرأي في الحب يخلص إلى رأي افلاطون الذي عرضه بلسان ارستوفانس (Aristophanes) ؛ فالانسان في الماضي السحيق كان ينقسم في نظره الى ثلاثة اجناس ، الذكر ، والانثى ، والخنثى ، وهو يرى ان الذكر صدر عن الشمس ، والانثى صدرت عن الارض ، والخنثى صدرت عن القمر ، ويؤكد بأن الانسان كان بوجهين واربع آذان واربع اعين وكذلك بقية اعضائه ، وكان يسير معتدلاً مع انه يمشي على اربع ، وكان يتمتع بقوة ، وبأس ، وكان كثيراً ما

يستخدم هذه القوة في عصيان الآلهة والتمرد عليهم. مما دفع الآلهة وعلى رأسهم الاله زيوس (Zeus) لتبادل وجهات النظر فيما ينبغي ان يقوموا به للحد من طغيان الانسان وتطاوله على مقامهم ، ويشير افلاطون الى ان الحيرة تملكت هؤلاء الآلهة لانهم ما كانوا يريدون الفناء للانسان ، انما كانت رغبتهم ان يحدوا من سيطرته وجبروته ، لذلك اقترح الاله زيوس ان يجزأ كل فرد الى جزأين ، ويظل كذلك حتى يرجع عن عصيان الآلهة والتمرد عليهم ، ووافق « مجلس الآلهة » على رأي الاله زيوس ، ونفذوا هذا الاقتراح ، فاصبح كل جزء من الانسان يحن الى حاله الاول ، – حال القوة والبأس – ويبحث عن نصفه الآخر ويشتاق اليه .

ويذكر افلاطون « ان طريق السعادة في هذه الحياة ان نمكن للحب في حياتنا ، فيجد كل منا محبوبه الحقيقي ويرجع الى حياته الاولى حياة الاتحاد ، والشمل ، المجتمع » ولعل افلاطون وفق الى تحديد منشأ هذه العاطفة التي تعني هذا الشوق المنبعث في كائن من البشر حنينا الى الاتحاد في الآخر رغم ما في اسطورته من الاغراق الميتولوجي – الميتافيزي .

وافلاطون بعد ان يحدد ماهية الحب يرى الناس فيه على قسمين ، قسم لا يعبأ بغير المادة ولا يسعى الا وراء الجسد ، وقسم ينشد الجمال والاشياء الجميلة ، وهو يسر سروراً عظيما فيما اذا وقع على روح نبيل في جسم جميل ، وتحدث « ديوتيما » عن التربية في الحب فرأت انه يبدأ بالجمال المشاهد ، ثم يرتقي حتى يحب الأجسام الجميلة كلها ويرتقي فيحب المشاهد الجميلة ، ثم يصل الى المرتبة العليا وهي

حب الجمال المطلق وينتهي به المطاف الى معرفة جوهر الجمال .

نخلص الى القول بأن الحب في رأي افلاطون حبان ، حب علوي وحب أرضي ، ويمتاز العلوي بان موضوعه ليس المرأة في ذاتها ، وانه يتعلق بالروح ، والمحب فيه ينشدالارواح والنفوس ، والعقول .

الحب في رأي الفلسفة الاسلامية .

ونحن بعد ان عرضنا رأي افلاطون في ماهية الحب ، نود ان نقف على رأي الفلسفة الاسلامية في ذلك . ولعل « اخوان الصفا » كانوا السباقين الى معالجة هذا الموضوع ، ففي رسائلهم المشهورة فصل عن العشق ، فهم يقسمون العشق الى اصناف ثلاثة كما ان النفوس المتجسدة في نظرهم اصناف ثلاثة ، فالنفس النباتية الشهوانية ، والنفس الغضبية الحيوانية ، والنفس الناطقة .

فأما الاولى فتعشق لذّات الجسد من مأكول ومشروب وغيرها ، واما الثانية فتعشق المعارف والفضائل .

ويعلل اخوان الصفا المحبة التي تكون بين شخصين بأن سببها « اتفاق مشاكلة الاشخاص الفلكية في اصل مولدهما بضرب من الضروب الموافقة من بعض لبعض . » ثم لا يكتفون بهذا التعليل الفلكي بل يردفون بتعليل فلسفي ميتافيزي ،هو ان العناية الالهية ربطت اجزاء الكون واطرافه برباط من العلية والمعلولية « فكل شيء معلول لشيء فوقه وعلة لشيء آخر تحته . فالمعلول

يشتاق الى علته وينزع اليها والعلة تؤلف بالمعلول ، وتتحنن عليه .

والشيخ الرئيس ابي علي بن سينا رسالة في العشق (١) ، تضم سبع نقاط هي : سريان العشق في كل واحد من الهويات ، وجود العشق في الجواهر البسيطة غير الحية ، وجوده في الموجودات ذات القوة المغذية وجوده في الجواهر الحيوانية ، عشق الظرفاء للاوجه الحسان ، عشق النفوس الالهية ، وخاتمة .

والرئيس ابن سينا يرى ان العشق هو نزوع الى الكمال ، والكمال هو الخيرية المنبعثة عن الخير المحض وكل من الهويات ينزع الى الكمال وينفر عن النقص ، والوجود اما ان يكون مستعداً لنهاية الكمال او ان يكون خالياً من الكمال اومتردداً بين النقص والكمال .

الحب في نظر المحدثين .

في حين نجد ان الفلسفة القديمة حاولت ان تعلل الحب بنظريات ميتا فيزية ، نجد ان المحدثين حاولوا ان يعللوا الحب تعليلاً مبنياً على علم النفس ، فالمحدثون يقولون « ان الحب حال نفسية تستمد معينها من الغرائز والدوافع ، نظاماً مرتباً في الانفعالات تتحد في عاطفة واحدة قوامها تعلق بالشيء المحبوب ، وسرور لوجدانه ، وانقباض لفقدانه ، ولا تزال تتطور حتى تبلغ بالمحب مراتب يشعر فيها بدوام الشوق واللهف الى المحبوب في

(١) جامع البدائع – طبعة مطبعة السعادة . الرسالة الثامنة في العشق لابن سينا ص ٦٩ – ٧٠

حالتي حضوره وغيابه ويتمنى ان لو تمكن ان يتحد به ، فلا ينفصل عنه ، فيصبح الاثنان واحداً ، والروحان روحا . »

وشاعرنا ابن الرومي قد عايش هذه النظرية واقعا فهو يشير في ابياته الى هذا الاتحاد ، فيقول :

أُعَانِقُها والنفسُ بَعْدُ مَشوقةٌ
إليها وَهَلْ بعدَ ٱلعِناقِ تَدانِ
والْثِمُ فَاها كَي تَزُولَ حَرارَةٌ
فَيَشْتَدُّ ما القى من الْهيمانِ
كَأَنَّ فؤادِي لَيْسَ يُشْفي غَليلَهُ
سِوى أَنْ يَرى الرُوحَيْنِ يَجْتَمِعانِ

ويعلل المحدثون تركيب عاطفة الحب « انها تحتوي على العنصر الادراكي ايضاً » ، ويقول الاستاذ مكدوجل : « وقد سبق ان بينت ان تكوين الغريزة يشتمـــل على العموم اتجاها ادراكياً واحداً او اكثر يجعل الفرد قادراً على ادراك الاشياء او الاوضاع التي تتطلب نشاطاً غريزيا . والغريزة الجنسيـة التي لا تنضج في الفرد قبل ان تتطور فيه قابلية الادراك والقدرة على ضبط النفس احرى بأن يلاحظ فيها ذلك . »

ولقد حلل هربرت سبنسر (Herbert Spencer) عاطفـــة الحب فردها الى تسعة عناصر هي : الدافع الجنسي ، الشعـــور

بالجمال ، الانجذاب ، الاعجاب والاحترام ، حب الاستحسان ، اكبار النفس ، الشعور بالملك ، اتساع حرية الفعالية وذلك ناجم عن تحرر الشخصية واخيراً صفاء المودة والى جانب رأي هربرت سبنسر ، يرى « سيجمند فرويد » في كتابه « محاضرات جديدة في التحليل النفسي » ان هناك غريزتين اساسيتين في الانسان تتصادمان وتتعارضان هما غريزة الجوع ، وغريزة الحب ، الاولى تبغي حفظ النفس ، والثانية تبغي حفظ النوع .

بعد عرض هذه النظريات والآراء ، نرى ان عاطفة الحب ليست واحدة في سائر النفوس لتباين طبائعهم ومشاعرهم بتأثيرات - بعضها صادر عنها ، وبعضها فاعل فيها - ، نقصد تأثيرات المزاج والبيئة . والوراثة والبيئة ، اوسع من ان نحدهما بالفاظ . ومع ان الوراثة تغتذي بالبيئة مع جواز العكس ، فحظ الافراد يختلف بتأثيرهما اختلافا يتضح في تباين سلوكهم العام . والاختلاف في عاطفة الحب نفسها قائم على تداخل العنصر الوراثي بالعنصر الاجتماعي تداخلاً لا يمكن معه تعيين نسبة كل من العنصرين في توجيه السلوك العاطفي وعلى ضوء هذا القياس الموجز يمكن ان نفهم تعدد ألوان الحب . وبالتالي تعدد الاساليب المعبرة عن هذا الحب ، لان العاطفة قبل ان تصاغ في اطار تعبيري ، لا بدَّ لها من ان تتجمد في فكرة ما . وهكذا فالعاطفة ليست منفصلة عن « الفكرة » في رأينا وليست « الفكرة » منفصلة عن « الكلمة » ، في رأي كوندياك الذي نميل اليه . وكما انه لا يمكن الحكم على الفكرة ، خارج حدود الكلمة نفسها ، لا يمكن بالتالي الحكم على

العاطفة خارج حدود الكلمات بالذات .

مراتب الحب في الأدب العربي :

لذلك اعتبر انّ ما خلفه العرب من الألفاظ الدالة على تفاوت الشعور بالحب ، لم يأت اعتباطياً ، وانما تمخض عن التجربة « الحسية ـ الفكرية » ، لأنها نزلت منزلة التعبير عن هذه التجربة نفسها : فابن القيم الجوزية في « روضة المحبين » يفرد لما بين المتحابين من علاقة فصلاً مسهبا في صفات هذه العلاقة ومراتبها ، والثعالبي(١) نفسه في كتابه « فقه اللغة » يبين اسماء مراتب الحب عند العرب في فصل طويل .

والذي يؤخذ على ترتيب الحب عند العرب ، انه لصفات الحب ، دون الاعتناء بترتيبه على ضوء التحليل ، وفي مجال التحليل فهو ترتيب شمول لا خصوص ، لا يذهبون فيه مذهب الاستقصاء ، ، وعذر هؤلاء الذين كتبوا فيه ، انهم كانوا علماء « لغة » اكثر منهم علماء فكر فلسفية . وان كان بعض فلاسفتهم قد عنى بالحب كفكرة فان الطابع الغالب على آرائهم طابع ما ورائي اكثر منه طابعاً علميا .

ومراتب الحب عند ابي منصور الثعالبي هي : الهوى وهو اول مراتب الحب ، ثم العلاقة وهي الحب اللازم للقلب ، ثم الكلف وهو شدة الحب ثم العشق ، وهو اسم لما فضل عن المقدار الذي اسمه الحب ، ثم الشغف وهو احراق القلب مع لذة يجدها

---

(١) الثعالبي : فقه اللغة ، بيروت ، المطبعة الكاثوليكية ، ص ١٧١ .

وكذلك اللوعة واللاعج ... ثم الشغف وهو ان يبلغ الحب شغاف القلب ثم التتيم وهو ان يستعبده الحب ، ومنه رجل متيم، ثم التبل وهو ان يسقمه الهوى، ومنه رجل متبول، ثم التدليه وهو ذهاب العقل من الهوى ، ومنه رجل مدله ثم الهيام وهو ان يذهب على وجهه لغلبة الهوى عليه ومنه رجل هائم . »

محاولة تصنيف الغزل على ضوء تصنيف ستندال للحب .

يرجع ستندال في كتابه « في الحب[1] » هذه العاطفة الى اصناف اربعة : الحب العاطفي وهو القيام على هيام الواحد بالآخر في عنف فلا يعدل به شيئاً ، ثانياً الحب الاستلطافي ، وهو القائم على استلطاف الآخر واعجابه لما فيه من خصال الود واللطف ، ثالثاً الحب الحسي ، او الجسدي ، وهو الحب القائم على الشهوة الجنسية دون غيرها من العناصر النفسية ، رابعاً الحب العابث اوالكمالي، وافضل تسميته بحب الترف .

على اننا في حدود الغزل ، وبالنسبة الى نتاج العرب فيه نعتمد من تصنيف ستندال لكل من الحب العاطفي والجسدي وحب الترف مع نظرة خاصة تقتضيها طبيعة الادب ، وهكذا نجد ان الغزل يمكن ان يصنف التصنيف الآتي :

اولاً الغزل التقليدي : ولا موضوع للحب فيه عند الذين تبنوا طريقة الجاهليين في استهلال قصائدهم ، فهو داخل في باب الصنعة الفنية .

---

(١) Stendhal de l'Amour.

ثانياً : الغزل الحضري : ويمثله في الادب العربي عمر ابن ابي ربيعة .

ثالثاً : الغزل الحضري الماجن : وموضوعه الحب الجسدي المتطرف ، ولعل بشار بن برد احق من يمثله في الادب العربي ، وان كانت دواوين بعض الشعراء حافلة به .

رابعاً : الغزل العذري: (البدوي العفيف)وموضوعه الحب العاطفي الصادق ، ويمثله في الادب العربي جميل بن معمر و كثير . . وسائر العذريين .

وعلى ضوء هذا التحديد الجديد للغزل العربي ، سندرس جميل ابن معمّر ممثل الحب العذري في الادب ، وعمر ابن ربيعة شاعر الحب العربي ، ثم ندرس على هذا الضوء حب الجاهليين اصحاب الصنعة الفنية في الحب ، ونقارن بين حبهم وغزل ابن ابي ربيعة ونخرج على ما اعتقد بآراء جديدة في تحديد الحب ، والغزل .

نشأة الغزل العربي

في مطلع هذا الفصل اود ان اثبت ان الجاهليين لم يعرفوا الغزل ، وان عرفوا الحب ، وما هذه الابيات التي وطأوا بها لقصائدهم واغراضهم الا طريقة تقليدية لا تخرج عن نطاق الصنعة الفنية ، وهم في هذه التوطئات لم يحسنوا تصوير الحب ، ومغازلة النساء على نحو ما ، لذلك لا يصح ان نسمي ابياتهم هذه غزلاً ، وأما تلك الأبيات الغزلية في شعر الملك الضليل فانا اجزم بأنها قد دست عليه ، وهذا ما سندرسه ونبين رأينا فيه ، لذلك فالأدب

العربي لم يعرف الغزل الا بعد الاسلام وبعد الفتوح ، وكان من اسباب نهضته ان اثر فيه عاملان : لغة القرآن ، وجزالة الفاظه ، واسلوبه القصصي من حيث مبنى الشعر ، ورقة الامزجة ، واعتدال الذوق والانصراف الى الترف لاختلاط العرب بغيرهم من الامم من روم وفرس ، ووقوفهم على آثار هذه المدنيات ، وانصراف العرب عن الغزو والمعارك الاهلية ، وعلاقة الرجل بالمرأة من حيث « موضوعه » فالشاعر الاسلامي ، واحرص ان اسميه اسلامياً — بالنسبة الى العصر — كان حريصاً ان يصور عاطفة حبه ، وشوقه والعلاقة الروحية القائمة بينه وبين من احب بعيداً عن تصوير محاسن وجمال المرأة التي احبها ، بينما كان الشاعر الجاهلي لا يخرج في تصوير حبه عن وصف المرأة التي احبها .

والى جانب هذين العاملين اللذين ذكرت في تكوين مادة الغزل العربي ، ارى ان عاملاً آخر وهو الأهم في نهضة الغزل وحصره في بقعة معينة من الخلافة الاسلامية وهي الحجاز ، ان الدولة الاموية التي قامت على كره من الانصار والمهاجرين ، رغبت ان تصرف هؤلاء عن السياسة الاسلامية ، وعن سياسة الاحزاب في الشام والعراق ففرضت عليهم نوعاً من الاقامة ، فهم لا يبرحون الحجاز الا بأمر خاص ، والى جانب هذا النوع من تقييد الحرية الشخصية اغدقت عليهم الاموال والعطايا ، مما دفع هذا الشباب الى الترف واللهو والمجون ، وساعدت هذه الحياة المترفة بدورها ، على نهضة الغزل وبالتالي عل نهضة الغناء العربي . ونستطيع ان نقسم الغزل العربي بالنسبة للبيئة الى قسمين : الغزل البدوي

العفيف الذي نشأ في بوادي نجد والحجاز والغزل الحضري الذي نشأ في مكة والمدينة ، حيث الارستقراطية الاسلامية المترفة.

الحب العذري ، وصورته في الغزل البدوي

لم يعرف العرب الحب العذري الا في منتصف القرن الاول للهجرة ، ولعله ضرب من الحب الجنسي ، اعني به الحب الذي يقوم بين فتى وفتاة في سن مبكرة ، أما سبب نشأته فالاستاذ لويس ماسينيون يرى انه مقتبس من الحب الافلاطوني عند اليونان ومشتق منه وهذه نظرية ضعيفة ، لأن العرب في تلك الحقبة لم يقفوا على الآراء اليونانية بعد ، ولم يكونوا على علم بفلسفة اليونان وادبهم . فهذا الافتراض لا يصح من الوجهة التاريخية ، وان كنت ارى ان موضوع الحب العذري من حيث ماهيته خليق ان نشابه بينه وبين الحب الافلاطوني ، وان نقيم التشابه بينهما في سمو العاطفة وتعلقها بالروح ، وابتعادها عن الشهوة الوضعية ، ولا يصح ان نقارن بين الحب العذري ، والحب الافلاطوني في غير هاتين الناحيتين لان موضوع الحب الافلاطوني ، يختلف اختلافاً كليا عن موضوع الحب العذري ، فالحب الافلاطوني حب شاذ وليس هو الحب الجنسي ، فموضوع الحب الافلاطوني هو الحب السماوي وليست المرأة غايته ، لان القوم في عهد افلاطون كانوا ينظرون للمرأة نظرة مادية .

اما نشأة هذا الحب العذري فترجع الى عامل اجتماعي هو انهم كانوا فقراء بائسين فلم تتح لهم الظروف ان يعيشوا عيشة سكان

الحضر ، ولم يتح لهم ان يلهوا وقد تأثروا بالاسلام وبالقرآن فنشأ في نفوسهم شيء من التقوى هي مزيج من الحياة البدوية الساذجة، والرقة الاسلامية .

ويعلل الدكتور طه حسين نشأة هذا الحب العذري فيقول(١):

« ان هؤلاء انصرفوا عن حروبهم واسباب لهوهم الجاهلي كما انصرفوا عن الحياة العملية في الاسلام الى انفسهم واستخلصوا منها نغمة لا تخلو من حزن ولكنها نغمة زهد وتصوف ، وانا اعلم ان لفظ التصوف هنا لا يؤدي معناه الذي اريده ، فقل انهم انصرفوا الى شيء من المثل الأعلى في الحياة الخلقية »

« وظهر هذا الزهد وهذا الميل الى المثل الاعلى في مظهرين مختلفين اختلافاً شديداً احدهما الزهد الديني الخالص ... والثاني هذا الغزل العفيف الذي هو في حقيقة الامر مرآة صادقة لطموح هذه البادية الى المثل الاعلى في الحب ولبراءتها من ألوان الفساد التي كانت تغمر اهل مكة والمدينة من جهة اخرى . »

وأرى ان الاستاذ احمد عبد الستار الجواري في كتابه الحب العذري يحاول ان يرد على الدكتور طه حسين حين قال « ان الفقر والبؤس لا يصرفان الى التفكير بالمثل الاعلى وينتجان مثل هذا الحب العفيف . » ولعل الدكتور طه حسين حين قال الفقر لم يكن بوده ان يعني الفقر المدقع ، انما اراد ان طبيعة البدوي في بيئته الى جانب التقاليد التي ورثها كانت عاملاً فعالاً في تكوين

(١) حديث الأربعاء ، الجزء الأول ، ص ٢٣٧ .

هذا الحب العذري العفيف .

واني لهذا اود ان اخالف رأي الجاحظ (١) الذي وافقه عليه الاستاذ الجواري عندما قال « رجلان من الناس لا يعشقان عشق الاعراب احدهما الفقير المدقع فان قلبه يشغل عن التوغل فيه وبلوغ اقصاه ، والملك الضخم الشأن لان في الرياسة الكبرى وفي جواز الامر ونفاذ النهى ، وملك رقاب الامم ما يشغل شطر العقل عن التوغل في الحب والاحتراف في العشق . »

والواقع اننا مع الحب كأننا مع القدر على حد قول العقاد « اننا لا نولد عندما نريد ، ولا نحب عندما نريد ، واننا مع القضاء والقدر عندما نلد ، وعندما نموت وعندما نحب . »

وهكذا فموضوع الحب بالنسبة الى الفقراء والملوك على حد سواء ، ولعل اروع قصص الحب هي التي صدرت عن فقراء مدقعين ، او ملوك قاهرين كحب « غرازيلا » لشاعر فرنسا لامرتين ، وحب بونابرت لمعشوقته . عدا عن القصص الرائعة الخالدة في هذا الموضوع والتي خلفها فقراء وملوك .

فالدكتور طه حسين إذن قد وفق الى تعليل نشأة الحب العذري دون ان يمحص في المعنى الدقيق للفقر ، كما اني أرى ان الفقر لا يحول بين الانسان والحب .

والحب العذري يمثله في الأدب العربي قيس بن الملوح « ويشك بعض النقاد بصحة شخصيته » وجميل بن معمّر ، وكثير ، وقيس ابن ذريح .

---

(١) رسائل الجاحظ — الرسالة السابعة « في العشق والنساء » ص ١٦٦

الغزل الحضري :

الغزل الحضري هو صورة لحب الترف كما حدده ستندال ، هو الذي لا يتطلب لذاته ، وانما لمظهره . وهو ليس بالحب الحسي وليس بالعاطفي ، ولعل ستندال وفق الى تصوير هذا الحب حين قال «بأنه هذا الشعور الذي لا يتعدى فيه ولع الرجل بالمرأة الجميلة» ولعه بالفرس الجميلة ويفهم من عبارة ستندال ان الحب لا يطلب لذاته وهكذا لا يجد المحب المترف نفسه مقيداً بعهد تجاه المرأة موضع حبه هذا ، بل يجد سبيلاً الى الانفلات اشباعا لميل خاص فيه وهو لا يشعر بألم التنقل ، بل بلذته على الغالب .

ولعل عمر ابن ابي ربيعة مثال المحب المترف ، وغزله مثال الغزل الحضري المصور لهذا الحب ، فهو ليس بالحب الحسي تماما وليس بالعفيف الصادق وانما هو بين ، بين ؛ يريد اعجاب المرأة به وقلما يطلب حبا له ، وان واقع عمر ابن ابي ربيعة دفعه ان يتصرف بحبه وبغزله كذلك ، ومسلكه في حبه وغزله اوقع نقاد الأدب العربي في نظرات مختلفة حوله : فبينما يراه الدكتور زكي مبارك (١) غير صادق في حبه لانه حضري قلما ترسخ في نفسه الصبابة ، وانه لم يقصر حبه على امرأة واحدة ، وقد اغتر بجماله وثروته واعجب بافتتان النساء به ، يراه الدكتور طه حسين غير مغرور ولا تيّاه « كما انه لم يكن كاذب الحب ولا متكلفه ،

---

(١) في كتابة « حب ابن ابي ربيعة وشعره »

وانما كان صادق الحب قويه ايضا . »

ومهما يكن من قول ، فعمر كان محباً مترفاً ، صادقا في حدود الترف ، ووفيا فيه للمرأة التي يحب طالما تثير لذته بالترف ، فاذا تركها الى غيرها صدق في شعوره نحوها ووفى ايضا فهو - محب - للنوع الجميل لا لامرأة جميلة من « النوع » .

جميل بن معمر

التاريخ نسبه حياته ميزته آثاره منزلته



نسبه : هو جميل بن عبد الله بن معمر بن صباح وينتهي نسبه الى عذره ، وامه من جذام . ولد في الحجاز ، في الموضع المعروف بوادي القرى — في اواخر النصف الثاني من القرن الاول الهجري ، سنة ٨٢هـ و ٧٠١ م باجماع النقاد — وهناك نشأ ، وقد احب وهو غلام ابنة عمه بثينة بنت الحباب من بني الاحب وهم فرع من بني حن بن ربيعة ، والى ذلك يشير :

علقت الهوى مِنها وَلِيداً فلَمْ يَزلْ
إلى اليومِ يَنْمَى حُبُها وَيَزيدُ .

حياته : ويُشير الرواة ، الى انه كان يرعى ابلاً لأهله ، فجاء بها ذات يوم على وادٍ يسمى « وادي بغيض » فتركها تكلأ واضطجع ، واهل بثينة بذيل الوادي .. واقبلت بثينة وجارية لها تردان الماء فمرتا على فصال (١) له بُروك ، فنفرتهن بثينة فسبها

(١) ج فصيل وهو ولد الناقة اذا فصل عن امه.

جميل وسبته وكان ذلك بدء علاقته بها وفي ذلك يقول :

وَأَوَّلُ مَا قَادَ الْمَوَدَّةَ بَيْنَنَا
بِوَادِي بَغِيضٍ ، يَا بُثَيْنَ ، سِبَابُ
فَقُلْنَا لَهَا قَوْلاً ، فَجَاءَتْ بِمِثْلِهِ ،
لِكُلِّ كَلَامٍ ، يَا بُثَيْنَ ، جَوَابُ ،

ثم تمكنت بينهما اواصر المحبة ، فأخذ يتردد على حبها ، فيتحدثان بعيداً عن اعين الرقباء ، ثم شاع خبرهما وخاف اهل بثينة مغبة الأمر ، بعد ان توطدت بين الشاعر وبثينة العلاقات ، فأرادوا أن يحولوا بينهما فهجاهم الشاعر ، فاستعدوا عليه مروان بن الحكم وهو على المدينة ، فاهدردمه ، وانذر ليقطعن لسانه ، فهرب جميل الى اليمن ، ولم يعد الا بعد ان عزل مروان ، ثم لحق بأهلها عندما انتجعوا الشام فشكوا أمره الى عشيرته ، ولم ير بداً من الانقطاع عنها ، ثم رأى ان يلجأ الى مصر ، وهناك توفي .

ويؤخذ من شعر جميل ومن اقوال الرواة ، ان بثينة قد بادلته هذا الحب القوي العنيد الجارف ، ولكن ابى قومها ان يزوجوه بها خوفا من ان تعيرهم العرب ، بعد أن شبب بها .

امتاز شاعرنا باسلوب جميل ، وبأنه خالف الجاهليين في موضوع حبه فهو في جميع ابياته يصور الحب القائم بدنه وبين بثينة ويصور آلام المحب ، وما يلقى عناء الشوق ، هذه الميزات التي لم يوفق الجاهليون الى تصويرها ، وهو مع كل ما لقي من عناء ،

وما تحمل في سبيل هذا الحب من شقاء ظل هـذا الشاعر المتيم بها المخلص لها، وفي شعره صورة هذا الاخلاص وصورة المحب الذي يرضى من حبيبه « بما تقر له بلابل الواشي » وهو كثير الالتفاتات من الغيبة الى الخطاب ، ومن الخطاب الى الغيبة ، فضلاً عن انه استاذ الغزل البدوي وحامل لوائه في البادية ، بازاء عمر ابن ابي ربيعة حامل لواء الغزل الحضري . وهو صورة للغزل العذري العفيف .

ماهية الحب العذري

الحب العذري والذي سمي خطأ بالحب الافلاطوني ، هو ظاهرة اجتماعية جديدة بعض الشيء في حياة العرب ، تتمكن اواصره بين فتى وفتاة فيألف احدهما الآخر في عهـــد الطفولة . وتأخذ هذه الألفة في النمو كلما تقدمت بهذين الاليفين السن ، حتى اذا بلغا الحلم ، واحسا في نفسيهما شوقا شديداً ، وميلاً جنسياً ، استعرت بهما نار المحبة ، وتأججت فيهما عاطفة الحنين ، وادرك كل منهما حاجته الماسة الى صاحبه ، ورغبته في الاجتماع به ، والتحدث اليه .

ويروح الأليف يفهم نظرات صاحبه على غير ما يفهم الناس النظرات ، فتراه يقرأ فيها عشرات الصور ويتحسس منها مئات الأحاسيس ويتراءى له طيف صاحبه في البيت وفي المرعى ، في الليل وفي النهار ، واذا هو يعيش به ، ويعيش له على منوال تلك الصور التي بعثها شاعرنا البحتري في وصف طيف الحبيب :

إذَا مَا ٱلْكَرى أَهْدَى إِليَّ خيالَهُ
شَفَى قربهُ ٱلْتّبريج او نقعَ ٱلصّدَى
إذَا انتزعته من يَدَيَّ انتِبَاهَةٌ
حَسِبْتُ حَبِيباً رَاحَ مني أَوْ غَدا
وَلَمْ أَرَ مِثْلَيْنَا وَلاَ مثلَ شأننا
نُعَذَّبُ أَيْقَاظاً وَنَنْعُمُ هُجّدَا .

ويظل الأليفان في احلامهما حتى اذا بلغا مرحلة الشباب اخذا يتبادلان النظر والابتسام ، ويرتاحان في اللقاء فينعمان بالسرور ، ويطمئنان الى بعضهما ، حتى إذا ابتعدا او افترقا استعادا سعادة اللقاء وجماله واستعادا حديث قلبيهما ونجوى روحيهما في كثير من شوق ، وكثير من حنين .

ويتقدم الشاب في الحياة فاذا هو رجل يشعر في قرارة نفسه بالحاجة الى المرأة ، المرأة التي تؤنس وحدته ، وتشاركه في حياته ، فينعم قربها بالسعادة .

وكذلك تشعر الفتاة في اعماقها بحاجتها الى الرجل ، الذي ترى فيه صورة احلامها ، ويبحث كل منهما عن وسيلة مشروعة للقاء ابدي لا انفصام له ، فيجدان في « الزواج » غاية مطافهما ومنتهى سعادتهما .

فالحب العذري في بادىء الامر اذن ضرب من ضروب الصداقة

البريئة ، والزواج في نظر المحبين العذريين وسيلة شرعية لاجتماع الحبيبين ، وليس كما يعتقد الماديون محض وسيلة لقضاء حاجة جسمية . وانما هي كما قرر علماء النفس « عنصر ثانوي في تكوين العاطفة » وقد اكد ذلك الاستاذ بويس جبسون (Boyce Gipson) عندما افاض في الحديث عن عاطفة الحب ، وميّزه بانه سرور المحب بالمحبوب لذاته لا لأنه يسد فيه حاجته او يشبع فيه شهوة .

ومن الطريف ان يكون إمامنا الغزالى قد تحدث قبل جبسون بقرون في هذا الموضوع ، فقال في كلامه على اسباب الحب : « والسبب الثالث ان يحب الشيء لذاته لا لحظ ينال من وراء ذاته بل تكون ذاته عين حظه وهذا هو الحب الحقيقي البالغ الذي يوثق بدوامه . (١) »

فالعلم الحديث يقر إذاً ان العفة من مستلزمات الحب العذري ، ومن هنا عرف هذا الحب بالعفة وابتعاده عن اللذة وعدم تعلقه بالجسد ، وامتاز الحب العذري بانه مثالي يسعى لذاته . ومن خصائصه البارزة انه توحيد لا اشراك فيه ، فلا يعرف المحب سوى هذا الانسان الذي يملأ عليه نفسه ، ويملأ عليه حياته فلا يلتفت الى انسان آخر وهو من هذا القبيل يخالف مخالفة كلية حب الترف الذي سنراه عند عمر ابن ابي ربيعة ، لأن عمر لم يكن يحب لنفس الحب ، انما كان موكلا بالجمال يتبعه .

فهذا الحب العذري الذي حاولنا ان نحدد ماهيته والذي بدت صوره في الادب العربي في اواسط القرن الاول الهجري ،

---

(١) احياء علوم الدين للغزالي ـ كتاب المحبة ج ٤ ص ٢٣١

والذي حمل لواءه شعراء من البدو في مقدمتهم جميل بن معمّر صاحب بثينة ،سمّي بالعذري نسبة الى قبيلة بني عـذرة التي هي فرع من قضاعة تنتهي في رأي النسابين الى ابن مالك بن مرة بن زيد ابن مالك بن حمير بن سبأ . ونحن هنا ليس يهمنا تحديد ذلك في ان تكون « عذرة » من قحطان ، او من عدنان ، ولكنّ الذي يعنينا من الأمر ان بني عذرة كانوا يقيمون في شمال الحجاز مع بطون قضاعة وكلب وجهينة وغيرها وكانت ديارهم في وادي القرى وتبوك ممتـدة الى أيلة على البحر الاحمر (١) ، قلت ليس يعنينا ان نحدد اصل هذه القبيلة أهي من عدنان او من قحطان وانما الذي يعنينا هو ان هذه القبيلة عرفت بهذا اللون من الحب الجارف العنيد الذي لا يعرف هوادة او لينـاً . ويقول ابن خلكان : « قيل لاعرابي من العذريين ما بال قلوبكم كأنها قلوب طـير تنماث كما ينماث الملح في الماء اما تتجلدون . فقال اننا ننظر الى محاجر اعين لا تنظرون اليها(٢) » وقيل لآخر : « ممن انت ؟ » فقال : « انا من قوم اذا احبوا ماتوا » فقالت جارية سمعتـه : « هذا عذري ورب الكعبة » (١)

هذه مقدمـة في الحب العذري اثبتناها في عرض بحثنا عن الحب والغزل بين الجاهليه والاسلام لنوطىء لدراسة حامل لواء هذا الحب ، جميل بن معمّر ، ولندرس على هذا الضوء ، الحب

(١) مادة عذرة في دائرة المعارف الاسلامية .

(٢) وفيات الأعيان لابن خلكان ، ج ١ ص ٢٠٣ .

(٣) المصدر الاول.

والغزل في الادب العربي .

آثاره : لجميل ديوان لا يزال مخطوطاً محفوظــاً في مكتبة برلين ، فضلا عن اخبــاره واشعاره الكثيرة المنتشرة في كتب الادب ، واكثر شعره في حبــه لبثينة ، وله بعض الاشعار في الفخر والهجاء .

منزلته : اوقف جميل شعره على الغزل لذلك لم يتكون لدى النقاد رأي صريح في ادبه وان كان عبد الرحمن بن حسّان بن ثابت الانصاري يراه « اشعر اهل الجاهلية والاسلام ويقسم انه ما لأحد منهم مثل هجائــه ولا نسيبه » وان كنا نرى نسيب جميل من الشعر القوي الممتاز سواء في انتقاء معانيــه ، ولطف سرده ، وجزالة لفظه ، ورقة عاطفته ، وسواء في رصانة العبارة وقوتها ، فنحن نشك في منزلة الشاعر في الهجاء ذلك لأن أبياتــه القليلة في هذا الفن لا تعطي كما قدمت فكرة صحيحة عن هجائه . هذا وقال فيه عبد الرحمن بن ازهر « جميل اشعر اهل الاسلام . » وقال محمد بن سلاّم « كان لكثير حظّ وافر وجميل مقدّم عليه وعلى اصحاب النسيب في النسب . وكان جميل صادق الصبابة والعشق ، ولم يكن كثير بعاشق ولكنه كان يتقوّل . »

وخلاصة القول ، ارى ان النقاد الذين حكموا لجميل بالتفوق قد تأثروا بشاعريته الرقيقة وعاطفته الصادقة فحكموا له .. وعندي أن . حكم محمد بن سلاّم اجدر ان نأخذ به .

كان يدفع قطيعه دفعاً رقيقاً ، في شيء من دعابة ، ويمد عينيه في الطبيعة الحالمة المشرقة من حوله ، وقد القى عصاه على منكبيه والقى عليها يديه من الوراء ؛ والقطيع يتهادى امامه ، ينفر ذات اليمين ، وذات اليسار ، وسرعان ما يعود فيجتمع ويتابع سيره على هذا العشب الأخضر الندي ، وشاعرنا لا يكترث لهذا القطيع ولا يعبأ به ، حتى اذا ما اجتاز به مكانا معيناً من الوادي الذي قصده في هذا الصباح ، تركه للعشب يكلأه ، وجلس ناحية يمد في هذا القطيع نظره ، وفي اصوات الطير الحالمة في اكناف الغصون سمعه ، وكان يحس في نفسه ضعفا ووهناً ، وانه احوج ما يكون الي قسط من الراحة ، وقد بكّر في الانطلاق من بيته قاصداً « وادي بغيض» حيث يكثر المرعى ، ويطمئن القطيع ، واضطجع جميل لا يأبه لشيء من حوله ، ولا يهتم لشيء مما يحيط به ، وما كان يدري ان ريحه ستهب من هذه الجلسة ، وان الناس سينظرون اليه ، وسيستعيدون ذكراه في مجلسه هذا ، وفي ضجعته هذه ، وهو نفسه لم يكن يتصور شيئاً من هذا ، كمن يعتقد ان القدر من حوله لا يحس به ؛ وظل في استلقائه ، كما صورت ... وقد اتجه القطيع انى شاء ، وتفرق في انحاء الوادي ، فوق الكلأ ، يقترب من الماء فيرتوي ، ثم يرتد عنه فيجتمع الى بعضه ... ،

وارتفعت الشمس ... ، وجاءت الفتيات الى الماء يردن وكانت ابنة عمه بثينة ورفيقة لها بينهن فلما رأت بثينة هذا القطيع

قد تفرق دونما نظام - وكانت مع صغر سنها لا ترعوي عن شيء - راحت تعذبه وهي لا تدري انه لجميل ، حتى أثخنته بضربها ، وآلمته ، فهبت هذه البهم مسرعة تلتجيء الى صاحبها ، واستفاق جميل ، على حركتها وهي تسير على غير هدى وفي غير امن وتتطلع فرأى بثينة ، وكانت جويرية لم تدرك بعد ، فسبها وسبته ، ووقع سبابها من نفسه موقعاً جميلاً ، وكأنه قد حرك فيه هذه الكوامن التي كان يحسها وهو في طريقه الى الوادي مع الصباح ، ولا يدري كنهها وكاد يلحق بها ويؤدبها ، او يضمها الى نفسه ولكنها لحقت بقومها في ذيل الوادي .

ولم يعبأ جميل لما حدث وظنها حادثة كهذه الحوادث التي تقع للرعيان في كل يوم ، وتقع لهم في سيرهم نحو المرعى وكلما تغاضوا عن القطيع ولم يهتموا به ، وكاد جميل يتناسى كل شيء ، ويتناسى بثينة لولا ان رآها ذات يوم ، فرأى في وجهها صورة لم يرها من قبل ، ورأى في عينيها بريقاً من رجاء ، وأحس في قلبها شعلة من حب ، وكانت انوثتها قد اكتملت ، واصبحت بثينة نضرة الشباب وثورته ، وفي جمال الربيع وبهائه ، واحب جميل بثينة ، واحبها لا كالحب ، وراح يستعيد ذكرياتها في وادي بغيض ، وراح يسترجع سبابها ، وكيف انه احب منها هذا السباب وتلك الجرأة تتمرد بها عليه ، وترد بها ثورته وغضبه ، فادرك جميل ان هذا الأمر الذي رغب ان يتناساه راح ينبعث اليوم من قلبه وحياته ، وينبعث ضوءاً يبدد الظلام المكتنف من حوله فاذا هو محب لها ، تائه بها .

أَوَّلُ مَـا قَادَ الْمَوَدَّةَ بَيْنَـا
بِوَادِي بَغِيضٍ ، يَا بُثَيْنَ سِبَابُ
فَقُلْنَا لهَا قَوْلاً ، فَجَاءَتْ بِمِثْلِهِ
لِـكُلِّ كَلَامٍ ، يَا بُثَيْنَ جَوَابُ

بلى لقد احبها ، وتاه بها ، فاذا هي نشيده الذي يغني ، ولحنه الذي يرتل ، واذا به يرى بعينيها ، ويحس بقلبها ، ويراها صورته التي يعيش بها ، ولم تكن ضنينة عليه بشيء ، فبادلته حباً بحب ، ولقاء بلقاء ، واحبته من جوارحها ، ومن صميم قلبها ، فاذا هو اللقاء الذي تسعى اليه ، واذا هو النشيد الذي تحاول ان تغنيه بعيداً عن كل رقيب ، ولكنها لا تفلح لأن الرقباء تتبعوها من كل جانب ، ولأن اسمها انتشر في كل بقعـــة ، وقد لازم اسم الشاعر ، فاذا هو جميل بثينة يعرف به ، ويتحدث عنه ، وجميل لا يأبه لشيء من هذا ، ولا يكترث له ، انما يحس هـــذا الحب يجري في عروقه ، ويجري في دمه قوياً ، ولم يكن في هذا الحب كاذباً ، او مدعياً ، او ساعياً وراء الجمال يتبعه ، كما كان يسعى عمر ابن ابي ربيعة ، فهو لا يرغب من النساء الا في بثينة ، ولا يتطلع إلا اليها . وإذا هو تائه في دنياه ، وقد ملكت عليه شغاف قلبه ، فبدت تتراءى له في ليله ، وفي نهاره في غدوه وفي رواحه ، واذا به يصورها كيف يشاء ، ومتى يشاء ، يصورها في هدأة الليل وسكونه ، تتراءى له كأنه ساعياً اليها ، فسقاها النوم تباعاً

من خمرته ، فاسكرها طويلاً حتى ترنحت اعطافهـــا ، ودب الضعف فيها فنامت ، ونامت طويلاً حتى اذا قدر لهذه النجوم التي تطرز اللجة ان تغيب ، واذا ما اقبل زائرها هذا الذي اسكرها عند الصباح ، واقترب منها ، احس عبيراً ، وشذى يفوح من فمها الدقيق الجميل .

لعمرك يا جميل كأنني اراك انت هذا الزائر ، وانت همذا الساقي اسقيتها رحيقاً من حبك ، وشذى من سحرك ، فنامت ، واضجعت الى جنبك وانت الى قربها تحوطها بعنايتك ، وترعاها ، واذا انت لا تقوى ان تذيع خبر زيارتك ، كما اذاعها صاحبك عمر في رائتيه يوم زار « نعم » لأن حبك العذري ، وصـــدق عاطفتك ، واخلاصك لبثينة كل ذلك يحول دونك ودون ان تذيع من امرها خبراً ، ودون ان تشهر بها ، فأنت ضنين على خبرها ، صادق في ولائك لها :

وَكَأَنَّ طَارِقَهَا عَلَى عَلَلِ الْــكَرَى
وَالنَّجْمُ وَهْنًا قَدْ دَنَا لِتَغَوُّرِ
يَسْتَافُ رِيحَ مُدَامَةٍ مَعْجُونَةٍ ،
بِذَكِيِّ مِسْكٍ ، أَوْ سَحِيقِ الْعَنْبَرِ

بلى .. يا جميل انك انت هذا الزائر ، وانك لحريص عليها ، تود ان تذكرها دائماً بالخير ، وان تذكر اسمها كأحب الاسماء اليك واقربها منك ، وانت حريص ان تلقاها ساعياً وراء هذا

اللقاء ما قدر لك ، وكان بودك لو تموت فجأة اذا ما ابطأت في لقائك ، وكنت تحس يوم تخلف موعداً ، كأن اشهراً قد مرت عليك ولم يكتب لك فيها ان تراها ، ولك ان تكون كذلك فليس نعمة تعدلها نعمة الحب ، وليس لقاء اجمل من لقاء الحبيب :

إِنِي لَأَحْفَظُ غَيْبَكُمْ وَيَسُرُّنِي
إِذ تُذْكَرِينَ بِصَالِحٍ ،أَنْ تُذْكَرِي.
وَيَكُونُ يَوْمٌ ،لاأرى لَكِ مُرْسَلاً
أَوْ نَلْتَقِي فِيهِ ، عَلَيَّ كَأَشْهُرِ
يَا لَيْتَنِي أَلْقَى ٱلْمَنِيَّةَ بَغْتَةً ،
إِنْ كَانَ يَوْمُ لِقَائِكُمْ لَمْ يُقْدَرِ .

تلك هي صورة هذا الحب القوي العنيد الجارف ، الذي بدا في البادية واثر في هذه النفوس الرقيقة التي ما عرفت محرما ولا حاولته ، واذا بجميل هـذا الشاعر العذري المتيم لا يقوى ان يتناسى بثينه فذكرها على شفتيـه ، وصورتها ماثـلة في مخيلته ، وهو اذا حتم عليه ان يبتعد عنها ، لن يفارقها عن رضى منه ، انما سيكون امراً عظيما خطيراً في حياته ، وهو ليرضى ان تبكيه الباكيات ، ان هو اذاع من حبها خبراً ، او سعى في هذا الفراق ، لأنه يهواها ويعيش بهذا الهوى ما قدر له ان يحيا ، وان هذا الحب سيعيش معه في قبره ، وهناك ستتجاوب اصداؤه ، وستبعث

ذكرياته، وابة صورة اجمل من هذه الصورة التي يخرجها جميل ويحيا بها، ويتبعها حتى بعد موته ، واي حب اقوى واعنف من هذا الحب الذي عايش جميل ، وعاش فيه ادبه وحياته ، حنانك جميل كيف تنظر اليهـــا تسألها ما وعدت ، بطرف كسير وشـــوق يحز نفسك وقلبك ، ويختلج في شعورك وفي دمك، فها انت تصور نفسك كالفقير البائس المحتاج المتطلع الى الغني الموسر، وما كان لك ان تصور نفسك كذلك ، وما ضنت عليك بثينة بلقاء ، او بعطاء فلقد وهبتك قلبها غير ضنينة ، ووهبتك روحها غير بخيلة ، وانت مع ذلك تصورها هذه الصورة ، فتبعثها مقدّة بخيلة ضنينة عليك ، فهي في نظرك تعدك وتخلف ، وان باستطاعتها ان تؤدي ما عليها من دين لك ، فهي موسرة في نظرك ، وانت كما يبدو لا تكترث بما يحيط بها من خوف ووجل ، حتى اراك قد يئست من لقائها ووجدت وعدها كضباب متكاثف ، يبشر بالمطر ، ولا يمطر ولكنها لا بخلًا عليك ، وانما مجاراة لمحيطها .

أَوْ أَسْتَطِيعُ تَجَلُّداً عَنْ ذِكْرِكُمْ ،
فَيُضِيفَ بَعْضُ صَبَابَتِي وَتَفَكُّرِي
لا تَحْسَبِي أَنِّي هَجَرْتُكِ طَائِعاً
حَدَثٌ ، لَعَمْرُكِ ، رَائِعٌ أَنْ تُهْجَرِي .
فَلْتَبْكِيَنَّ ٱلْبَاكِيَاتُ ، وَإِنْ أَبُحْ ،

يَوْماً بِسِرِّكِ مُعْلِناً ، لَمْ أُعْذَرِ
يَهْوَاكِ ، مَا عِشْتُ الْفُؤَادُ ، فَإِنْ أَمُتْ
يَتْبَعْ صَدَايَ صَدَاكِ بَيْنَ الأَقْبُرِ
إِنِّي إِلَيْكِ بِمَا وَعَدْتِ لَنَاظِرٌ
نَظَرَ الْفَقِيرِ إِلَى الْغَنِيِّ الْمُكْثِرِ
يَعِدُ الدُّيُونَ ، وَلَيْسَ يُنْجِزُ مَوْعِداً
هَذَا الْغَرِيمُ لَنَا ، وَلَيْسَ بِمُعْسِرِ
مَا أَنْتِ وَالْوَعْدُ الَّذِي تَعِدِينَنِي ،
إِلَّا كَبَرْقِ سَحَابَةٍ لَمْ تُمْطِرِ .

ولعل جميل كان يدرك اخلاصها ، ويحس بصدق عاطفتها ، وانها تهواه ولا تعدل بحبه حب سواه ، وأن المحيط قد ضيق عليها ، وحال بينها وبين لقائه ، فهو يدرك ذلك ، ويعرف ان الرقباء قد احاطوا به من كل جانب ، واطبقوا عليها فهو لا يراها إلا خائفاً وجلا ، مرتبكاً في امره حائراً ، ايقدم ام يحجم ، ولربما لم يسع اليها ، ولم يرغب في لقائها الا اذا قدر له ان يغادر هذه البلاد التي تعيش فيها « بثينة » وانه حتم عليه ان يغادرها أجلا قد يطول وقد يقصر ، لذلك يحتال حتى يودعها وداعاً لا كالوداع الذي يريد.. فليس فيه امن ، وليس فيه رحمة ، وليس فيه دفء يحسه جميل

فتهدأ نفسه ، وينشرح صدره ، ويرضى قلبه ، وان جميل ليشكو هذا الحب ، ويعلن للملأ عن الآلام المبرحة التي يعانيها ، وانه ليبكي لقتل هذا الحبيب له ، متسائلاً هل بكى لمثل هذا احد قبله بين المحبين ، ويتساءل كيف يرضى ان يجد ثمة فئة من الناس ليس لهم مكانته وليس لهم فضله قريبين من اهلها ، مع ان اهله اكثر منهم مجداً ، وأرفع منهم مقاما .

أجدَّكَ ! لا أَلْقَى بُثَيْنَةَ مَرَّةً ،
مِنَ ٱلدَّهْرِ ، إِلَّا خَائِفاً ، او على رَحْلِ
خَلِيلَيَّ فِيما عِشْتُما ، هَلْ رَأَيْتُما
قَتِيلاً ، بَكَى مِنْ حُبِّ قَاتِلِهِ قَبْلِي
أَبِيتُ مَعَ ٱلْهُلَّاكِ ضَيْفاً لِأَهْلِها
وَأَهْلِي قَرِيبٌ مُوسِعُونَ ، ذَوُو فَضْلِ

وجميل رغم كل ما يلقى ، ورغم ما يتكلف من عناء حبها وآلامه ليراها اجمل المحبين واخلصهم ، وانه ليبدو مغاليا في هذا الحب ، يفديه بكل ما اوتي ، حتى انه ليفديه بيمينه ، وليعطي رسولها ما يطلب ولو عزّ عليه ذلك :

فَلَوْ أَرْسَلَتْ يَوْماً بُثَيْنَةُ تَبْتَغِي
يَمِينِي ، وَلَوْ عَزَّتْ عَلَيَّ يَمِينِي

لَأَعْطَيْتُها مَا جَاءَ يَبْغِي رَسُولُها ؛
وَقُلْتُ لها بَعْدَ ٱلْيَمِينِ : سَلِينِي
سَلِينِيَ مَالِي يَا بُثَيْنَ ، فإنَّمَا
يُبَيَّنُ عِنْدَ ٱلْمَالِ كُلُّ ضَنِينِ

ولم تكن بثينة لتسعى وراء مغنم ، أو وراء مال ، او وراء شيء يقدمه جميل ، لقد اخلصت له ، واحبته ، وجارته عنيدة قوية في حبه العنيد القوي الجارف ، وامكانيات بثينة غير امكانيات جميل ، فهي فتاة من عذره ، وهي محوطة بأهل غلاظ اشداء لاتقوى ان تضحي بكل شيء ، ولو حاولت ان تضحي بكل شيء ، لكان ذلك منها مجازفة وخطراً ، ويقف جميل امام هذا الحب القوي العنيد الجارف ، وامام تلكئها في لقائه ، متسائلاً حائراً لا يعرف ماذا يعمل ، وتذهب بـه الظنون كل مذهب ويخال ان الوشاة قد اساءوا اليه ، يوم حدثوها حديثه ، وانه اساء اليها في هذا الحديث الذي نقلوه ، فهو يسألها ان تؤمن بأنه كان صادقا في ما تحدث لم يسيء اليها ، وانهم ظلموه يوم نقلوا اليها الحديث على غير صحته ، واضافوا اليه ما رغبوا ان يضيفوه ، وإنه ليؤكد لها ، انها لو سألته امر هـذا الحديث لحدثها عن حقيقته ، وجاءها بشاهد عدل يقص عليها النبأ على صدقه دون التواء ، وانه مع ذلك يخيرها في ان تقبل هذه الحقيقة بعيدة عن كل تأثير وعن كل رجاء ، فان ظلت على العهد فهو للعهد ، وان ابت ،

وشاءت لهذه العلاقة القائمة بين قلبيهما ان تنفصم فهو لن يسألها وصالاً ولن يرجو بعد اليوم لقاء ، وكما تحمل في الماضي القريب منها ما تحمل فسيظل على ما أدرك لهذا الحب ذاكراً ، ولهذا الحبيب متفانيا .

وَنُبِّئْتُ قوماً فيكِ قَدْ نَذَرُوا دَمي
فَلَيْتَ ٱلرِّجَالَ ٱلْمُوعِدِينَ لَقُونِي
إِذَا مَا رَأَوْنِي مُقْبلاً عَنْ جَنابَةٍ ،
يَقُولُونَ : « مَنْ هذَا ؟ » وَقَدْ عَرَفُونِي .

لا شك في انهم كانوا جبناء ، لم يستطيعوا ان يقاوموا جميلا، او انهم اتخذوا الحيطة منه ، فهم يعرفون مبلغ حبه لبثينة ، ويدركون مع ذلك ان بثينة كانت تبادله هذا النوع من الاخلاص وهم مشفقون عليها يشاركونها هذا الاكبار له في الخفاء ، ويقدرون مبلغ هذه العاطفة المتبادلة ، وهم مع ذلك من هذه الطبقة التي نمت في الجزيرة وعرفت مبلغ الشرف فهي حريصة ان لا تتناول هذه القبائل العربية خبر بثينة وجميل ، كما اعتادت ان تتناول الأخبار وان تذيع من امرهما كما اعتادت ان تذيع الامور ، في غير روية ، وفي غير تحفظ ، لذلك كانت هذه الجماعات التي اتفقت ظاهراً على أن تقاوم جميلا وتقتله ، اتفقت فيما بينها - اكباراً لاخلاصه وإيمانا منها بهذه العاطفة الصادقة المخلصة - ان تتجاهله ، ولعلها بلغت فيما اقدمت عليه ، مبلغا عظيما من الحكمة والروية، وأعملت

العقل فيما اتخذت من قرار ، فلقـــد حالت بين لقاء بثينـــة وجميل علناً على مرأى من القبائل ، وتغاضت عن قرارها سراً لتترك لجميل الوقت والفرصة ليلتقي باعز الناس لديه ، واخلصهم اليه ، وان جميلاً رغم إبائه وشجاعته لم يتبـع خطة امرىء القيس يوم اراد ان يناجز اعداءه بالسيف :

أَيَقْتُلُنِي وَالْمَشْرَفِيُّ مُضَاجِعِي
وَمَسْنُونَةٌ زُرْقٌ كَأَنْيَابِ أَغْوَالِ .

كما انه لم يتبـع خطة عمر ابن ربيعة الذي جبن بالامس ، والذي لم يقو ان يزور « نعم » حتى « روح الرعيان » ، « ونوم سمر »

نعم انه لم يفعل ما فعله عمر ، الذي اراد ان يظهر « لنعم » شجاعته واباءه بعد ان استقبلته احسن الاستقبال ، ولاقته اجمل اللقاء ، ووهبته روحها ونفسها جميعا ، يقول عمر :

فَقُلْتُ « أُبَادِيهِمْ فَإِمَّا أَفُوتُهُمْ ،
وَإِمَّا يَنَالُ ٱلسَّيْفُ ثَأْراً فَيَثْأَرُ . »

ولعل الحب يدفع هذه النفوس ان تثور لكرامتها ، وان تتطاول على ما هو عرف ، وعلى ما هو مخالف لآداب البيئة وعقليتها .

ولكن ، ومع كل ما لقي جميل من عناء ، وما تحمل من

بلاه ، وما جابه من خصوم ، ظل هذا المحب المتيم بها ، الساعي اليها ، حتى اعجبت الفتيات بهذا الحب الصادق ، فجاءته احداهن تعرض حبها في شيء من احتياط وتحفظ ، وتعرض نفسها عليه ليتزوجها ، ولتصرفه عن هذا الحب الذي اوقف له حياته وشعره ، واحس جميل انها تمزج الجد بالعبث لتحتاط لأمرها إذا ما صرفها عن قلبه ودفعها عن نفسه ، واذا به يعتذر اليها اعتذاراً جميلاً ، ويرى انه لو بقي في قلبه ولو موضعا صغيراً لحب لسعى اليها ، او لطلب منها ان ترضى به زوجاً وشريكاً ولكن انى له ذلك وهو يدري اين مبتغاه وان بثينة قد ملكت عليه قلبه وحياتـــه لذلك لم يأبه لطلبها ، ولم يكترث بها :

فَلَرُبَّ عَارِضَةٍ عَلَيْنَـا وَصْلَهَـا
بِالْجِـدِّ تَخْلِطُهُ بِقَوْلِ الْهَـازِلِ
لَوْ أَنَّ فِي صَدْرِي كَقَدْرِ قُلَامَةٍ
فَضلاً ، وَصَلْتُكِ ،أَوْ أَتَتْكِ رسَائِلِي

وانه رغم ذلك كله ، ورغم مجيء هذه التي جاءت تسأله ان يتزوجها ، ورغم ما لقي جميل يظل لهذا الحب ذاكراً ، ووراءه ساعياً يصوره ، احسن صورة ، ويبدعه من قلبه وروحه ، احساساً عميقاً ، وشعوراً يختلج له قلب الشاعر ، فانه ليذكر كيف انه وقع في شراكها واصبح بها تائهاً منذ « يوم الحجون » ولعله اليوم الذي خرجت به لزيارة قبور اهلها ، غير انها على قوله لم تبادله حبا بحب ،

فلم تقع في شراكه فظلت تائهة لا تسعى اليه، بعيدة عنه لا تكترث به ، ولعله وله المحبين ، وشكواهم يصورونه كذلك ويبدعونه وفقا للواعج الحب ورغباته ، فهو يراها رغم ما وعدته به، وصدقت في هذه المواعيد ضنينة عليه بلقائها، مؤجلة له الخير الذي يرجوه ، واللقاء الذي يسعى اليه ، وانه ليراها غير مكترثة به ، ولقد زاد عدم اكتراثها يوم رأته يسعى اليها راضيا غير كاره ، وجاداً غير عابث ، وانه لمعجب بهذا التباطؤ راض عنه اجمل الرضى ، ما دام يصدر عنها .

صَادَتْ فُؤَادِي ، يَا بُثَيْنَ حِبَالُكُمْ
يَوْمَ ٱلْحَجُونِ ، وَأَخْطَأَتْكِ حَبَائِلِي
مَنَّيْتِنِي ، فَلَوَيْتِ مَا مَنَّيْتِنِي
وَجَعَلْتِ عَاجِلَ مَا وَعَدْتِ كَآجِلِ
وتَثَاقَلَتْ لَمَّا رَأَتْ كَلَفِي بِهَا
أَحْبِبْ إِلَيَّ بِذَاكَ مِنْ مُتَثَاقِلِ .

وبعد ان يرد جميل تلك التي عرضت نفسها عليه ، ويحدث بثينة حديثه ، يروح فيعاتبها عتابا رفيقا رقيقا ، ويؤاخذها على ما بدا منها ، وكيف اطاعت به عواذلا يحاولون ان يفرقوا بينهما ويأخذ شاعرنا فيوازن بين حبها وحبه ، وكيف انها اطاعت عواذلها فهجرته ، وهو لم يطع عواذله فصرفهم عن قلبه ونفسه

جميعا ولم يأبه لرجائهم وطلبهم ، مع انهم ألحوا عليه ان يقطع هذه الصلات القائمة بينه وبينها ، ليصرفوه عن حبه ويبعدوه عن حبيبه حسداً منهم وحقداً ، وانه لمؤكد لها ان هذه المحاولات التي يقومون بها ستذهب عبثاً ولن يستطيعوا ان يؤثروا عليه في شيء او ان يردوه عن شيء بما يريد ويصف كيف استخدموا معه شتى الاساليب والمحاولات فهم يعتمدون على الخطيئات التي ارتكبتها تجاه الشاعر ويأخذون بشن هجومهم عليها فيبينون له هذه الخطيئات وما ارتكبت نحوه من سيئات ، وان تلك المواعيد التي اخلفتها ، واطاعتها للعواذل ، وان كل ذلك جدير بأن تنفره منها ، وتبعده عنها .

وجميل في كل مايذهب اليه في هذه الابيات الجميلة في معانيها، وفي سهولة لفظها ، وجودة تركيبها ، ومثالية عاطفتها يريد ان يؤكد لبثينة انه مخلص في حبه لها ، صادق في ما يدعي فليس هناك ثمة قوة تحول بينها وبينه ، وتراه يؤكد لها كيف انه صرفهم جميعا فعادوا ادراجهم ، بعد ان اخفقوا في اصابة المرمى، فكأنهم رموه بسهام لا نصال لها :

وَأَطَعْتِ فِيّ عَواذِلاً فَهَجَرْتِني ،
وَعَصَيْتُ فِيكِ، وأَنْ جَهَدْنَ عواذِلي
حَاوَلْنَني لِأَبُتَّ حَبْلَ وِصالِكُمْ
مِنّي، وَلَسْتُ،وإِنْ جَهَدْنَ، بِفَاعِلِ

وَيَقُلْنَ : «إِنَّكَ قَدْ رَضِيتَ بِبَاطِلٍ
مِنْهَا، فَهَلْ لَكَ فِي اجْتِنَابِ الْبَاطِلِ؟»
لِيُزِلْنَ عَنْكِ هَوَايَ، ثُمَّ يَصِلْنَنِي ،
وَإِذَا هَوِيتُ، فَمَا هَوَايَ بِزَائِلِ .
فَرَدَدْتُهُنَّ ، وَقَدْ سَعَيْنَ بِهَجْرِكُمْ
لَمَّا سَعَيْنَ لَهُ ، بِأَفْوَقَ نَاصِلِ .

ثم يروح جميل يصور هذه الجماعات كيف انصرفت عنه وهي تعض اناملها من الغيظ والحقد واللؤم ، وتراه لا يأبه لها ، ولا يكترث لما منيت به من فشل ، وانه ليرجو لو عضت الصخور الصلبة من اللؤم بدلاً من الانامل ، بعد ان صورت بثينة بخيلة ضنينة عليه بلقاء وموعد وانه ليرى غاية المنى في هذا البخل ، وفي هذه المواعيد المتباطئة ، وانه ليفديها ويفدي مواعيدها المتأخرة لأنها غاية نفسه وأمل قلبه .

يَعْضَضْنَ مِنْ غَيْظٍ عَلَيَّ أَنَامِلاً ،
وَوَدِدْتُ لَوْ يَعْضَضْنَ صُمَّ جَنَادِلِ .
وَيَقُلْنَ : « إِنَّكِ يَا بُثَيْنَ ، بَخِيلَةٌ ، »
نَفْسِي فِدَاؤُكِ مِنْ ضَنِينٍ بَاخِلِ .

فأية صورة في الادب العربي ابرز من هـــذه الصورة القوية العنيدة التي يمثلها هؤلاء المتيمون من بني عـــذرة ، هؤلاء الذين يتقدمهم جميل صاحب بثينة في حبه العاطفي الصادق ، الذي ملك عليه احساسه يوم لم يتفتح بعد عـــلى الشباب ، فأحبها حباً ظن البعض انه حب جنون ، لما فيه من اخلاص ووفاء وصدق وتحمل للمشاق ، وجميل يؤكد لهم انه يهوى بثينة بقلبه وانه يعمل العقل في هذا الهوى لا يصرفه عنه شيء ، وانه يعقل ما يفعل وانه في أتم نشاط ، وأوفر قوة .

يَقُولُونَ ، مَسْحُورٌ يجِنُ بِذِكْرِهَا
وَأُقْسِمُ مَا بي مِنْ جُنُونٍ ولا سِحْرُ .

وكيف يكون كما ادعوا وهو يؤكد لهم انه يملك قواه العقلية جميعا ، ويقسم على ما يؤكد وهم لا يصدقون هذا الحب ، او انهم يصدقونه ولكنهم يريدون ان ينكروا من امره شيئا لأنهم لم يلتمسوا بعد حبا صادقا جارفا كحب جميل ، بيد انه يرضى من حبيبه الذي اوقف له حياته وشعره وادبه بالنظرة العاجلة ، او بالعام يمضي دون ان يلتقي بها ، او يتحدث اليها ، او بشيء آخر يصدر عنها عفوا او تعمدا ، يرضي بالذي لو رآه الواشي ـ الساعي في فراقها وصرفها عن هذا الحب الصادق ـ لأطمأن قلبه ، وانشرحت له اساريره . وان جميلاً ليذهب الى ابعد من ذلك في قناعته بحبها فهو يرجو ان تمنيه ، وان تخلف ، وان تعده ولا تفي ، وان تخاطبه جهارة او من وراء حجاب او بواسطة رسول حتى ولو قالت :

منها لا تتمكن من لقائه .

وانه يجد السعادة والمنى والأمل، في هذه المواعيد التي تخلّف فيها وفي هذا الاطمئنان الذي دخل قلب الواشي من غير قصد، فأهدأ ثورته واذهب عنه وساوسه .

وإنّي لأَرْضَى مِنْ بُثَيْنَةَ بِالَّذِي ،
لَوْ أَبْصَرَهُ الْواشِي لَقَرَّتْ بَلابِلُهْ
بِلاَ ، وبِأَلاَّ أَسْتَطِيعَ ، وبالْمُنَى
وبِالْأَمَلِ الْمَرْجُوِّ قَدْ خَابَ آمِلُهْ
وبالنَّظْرَةِ الْعَجْلى ، وبالْحَوْلِ يَنْقَضي
أَوَاخِرُهُ ، لاَ نَلْتَقِي ، وَأَوَائِلُهْ .

ورغم صدق عاطفة جميل وانه لا يروم أذى بثينة او أذى اهلها، فلقد اشتد الخلاف بينهما ، وكاد يقع ما لا يرضاه العقلاء بعد ان نعتهم جميل بالجبن وبأنهم لا يقدرون عليه ، فلقد ثار القوم لشرفهم ولمروءتهم ولسمعتهم بين القبائل فاستعدوا مروان ابن الحكم وهو والي المدينة من قبل معاوية ، فاهدر دمه ، وهدد بقطع لسانه ، فما كان من جميل إلا ان غادر البلد الذي نشأ فيه واتجه الى اليمن ، بعد ان هم القضاء وتألب عليه الحاكم ، ويرى الشاعر ان لا منجاة له إلا ان يركب ناقته ، وان يرفع لها هذا الحبل الذي يقودها به وان ينطلق في الارض .

أَتَانِيَ عَنْ مَرْوَانَ بِالْغَيْبِ أَنَّهُ
مُقِيدٌ دَمِي، أَوْ قَاطِعٌ مِنْ لِسَانِيا
فَفِي الْعِيسِ مَنْجَاةٌ، وَفِي الْأَرْضِ مَذْهَبٌ،
إِذَا نَحْنُ رَفَّعْنَا لَهُنَّ الْمَثَانِيا.

ويظل الشاعر عن بلده غريباً، وعن بثينة بعيداً، يذكرها في سره وتحيامعه في قلبه، حتى اذا قدر لهذا الحاكم ان يُعزل عاد الى بلده، واقام فيها، واخباره بعد هذه العودة قليلة لأن اهل بثينة قد اتجهوا نحو الشام، فيلحق بهم جميل، فيشكونه الى اهله فعنفه هؤلاء وأنبوه على تصرفاتة فلم ير بداً بعدذلك ان يغادر هذه البلاد، وأن يغادرها الى الابد، ولست ادري كيف كتب له الموت في مصر، وكأنه كان يحس ان الأجل قد دنا وأن لقاء الموت قد اقترب. وجميل إذ ينطلق الى مصر يرافقه هذا الطيف الجميل الذي احبه، وترافقه كلمات هذا الطيف الذي عاش لأجله وأوقف له ادبه وحياته، فهو في انطلاقه هذا يشعر ان القضاء قد اقترب ويأسف على هذا الشباب الذي اخذ في الذبول، كما يذبل الورد، ويأسف على هذا الدهر الذي انقضى وتولى، وانه ليأسف ايضاً على ضياع هذه الحياة التي كان يحياها بالقرب من بثينة وأنه لن يقوى على ادراكها بعد اليوم، بعد ان ازمع على فراقها.

أَلاَ لَيتَ رَيْعانَ ٱلشَّبابِ جَدِيدُ
وَدَهْراً تولّى ، يا بُثَيْنَ ، يَعُودُ
فَنَغْنى كَما كُنّا نَكُونُ ، وَأَنْتُمُ
قَرِيبٌ ، وَإِذْ مَا تَبْذُلِينَ زَهِيدُ
وَمَا أَنسَ م ِ ٱلْأَشْياء لاَ أَنسَ قَوْلَهَا
وَقَدْ قُرِّبَتْ نِضْوِي «أَمِصرَ تُرِيدُ ؟»
وَلاَ قَوْلَهَا : «لَوْلاَ ٱلعُيُونُ ٱلتِي تَرَى ،
أَتَيْتُكَ ، فاعْذُرْنِي ، فَدَتْكَ جُدُودُ !»

اية عاطفة اصدق ، واية صورة لشاعر ، تقوى ان تصور حباً جارفاً كصورة جميل ؟ هذه التي ترجوه فيها ان يعذرها ، خوفاً على حبهما المشترك من هذه العيون الحاسدة ، ومن هذه القلوب الحاقدة ، وانها لتفديه بأهلها ، هؤلاء الذين اساءوا فهمه ، ولم يقدروا حبه ، ولعل جميل قد ادرك في النهاية ان هناك قلبا كان يرعاه ، وان هناك حبيبا كان يشاطره المه وامله ، فكان يود ان يلقاه وان يفديه باهله ، ولعل بثينة قد ارضت جميلاً ففدته باهلها يوم عزم ان يفارقها .

وَلاَ قَوْلَهَا : لَوْلاَ ٱلْعُيُونُ ٱلَّتِي تَرَى ،
أَتَيْتُكَ ، فاعْذُرْنِي ، فَدَتْكَ جُدُودُ ؟»

وجميل الذي كان يموت هواه اذا ما التقى بها وتحدث اليها ، واصغى لها بقلبه وروحه وشواعره ، والذي كان يعيش لحنه فيها مخلصاً اذا ما غابت عن عينيه ، وابتعدت عنه .

يَمُوتُ ٱلْهوَى مِنِّي إِذَا مَا لَقِيتُهَا ،

وَيَحْيَا إِذَا فَارَقْتُهَا ، فَيَعُودُ

قلت ان الشاعر الذي كان يموت هواه ، لم يكن ضنيناً عليها بعذر ، وما كان ليحصي عليها هفوات لم تتعمدها ، وهو الذي تغاضى عن جفاء تعمدته يوم اصغت الى عواذله ، فغادرها ... على ناقته الضامره النحيلة ، التي هدت قواها الأسفار ، والمشاق التي تحملها جميل .

وفي مصر لم يلبث طويلاً ، بعد ان لجأ اليها ، وبعد ان احسن وفادته اميرها عبد العزيز بن مروان ، فلقد احس بالوهن يدب في جسمه ، وبالمرض يفتك في ضلوعه ، وادرك الشاعر انها نهايته قد اقتربت وانه سيموت بعيداً عن بثينة ورهطها، بعيداً عن «وادي القرى » وعن « وادي بغيض » وكم استعاد جميل في وحدته وفي غربته صوراً لبثينة ، وذكريات لها ، وأياماً مرت عليه ، فكان سعيداً بها رغم شقائه مطمئناً مع ما تحمل في سبيل هذا الحب .

ولكنه اليوم لم يعد يقوى ان يرجع اليها، وان يودعها الوداع الاخير ، فراح يرجو من فيه الكفاءة - والقدرة على ان يمنحه كل شيء يملك ، اذا ما قدر له ان يموت - على ان يأتي بعد موته رهط

بثينة ، وان يرتدي حلته وان ينشد هناك ابيات جميل الأخيرة التي يودع بها من احب ، والتي يسأل فيها هذا الحبيب ان يبكيه وان يندبه ، وان يحزن عليه لأنه ليس هناك ثمة حبيب يعد له في الاخلاص ، والوفاء

وقضى جميل ، وقضى حزيناً بعيداً عن بثينة، بعيداً عن اهله، غريباً في مصر قريباً مع ذلك من بثينة ، قريباً من اهله لانه عاش اواخر ايامه في ذكراها وفي محيطها .

وجاء الرجل ، وانشد قومها لحن جميل الأخير :

صَدَعَ ٱلنَّعِيُّ ، وَما كَنَى ، بِجَمِيلِ ،
وَثَوَى بِمِصْرَ ثَوَاءَ غَيْرِ قَفُولِ
وَلَقَدْ أَجُرُّ ٱلذَّيْلَ فِي وَادِي ٱلْقُرَى
نَشْوَانَ بَيْنَ مَزَارِعٍ وَنَخِيلِ
قُومِي بُثَيْنَةُ ، فَٱنْدُبِي بِعَوِيلِ
وَٱبْكِي خَلِيلَكِ دُونَ كُلِّ خَلِيلِ

ولم تصدق بثينة النبأ وظنت الرجل لاهيا ، يريد ان يثير فيها الشوق ، فلما اكدلها النهاية المؤلمة لشاعرها والتي لم تكن لتتوقعها ، خرت على الارض مغشياً عليها واسرعت النسوة اليها يسعفنها حتى إذا ما استفاقت بكته احر البكاء واقواه ، وبكت عهده ، وشبابه وعاهدت انها ستظل على عهدها مخلصة له ، صادقة ، وسوف لن

تتناسى حبه ، وان لا فرق عندها بين لين الحياة وشدتها، ما دامت قد احبت جميلا ، وما دام جميل قد ثوى وهو يردد لحنها ، ويغني نشيدها :

وَإِنَّ سُلُوِّي عَنْ جَمِيلٍ لَسَاعَةٌ
مِنَ الدَّهْرِ مَا حَانَتْ ، ولا حَانَ حِينُهَا
سَواءٌ عَلَيْنَا يَا جَمِيلُ بْنُ مَعْمَرٍ ،
إذا مُتَّ ، بَأساءُ الْحَيَاةِ وَلِينُهَا

ويموت جميل بن معمر استاذ الغزل البدوي العفيف ، يكاد يموت هذا اللحن الذي تعالى في البادية ، وساير لحن الغزل الحضري الذي نشأ في مكة والمدينة والذي حمل لواءه عمر ابن ابي ربيعة شاعر الحب العربي .

عمر ابن ابي ربيعة

التاريخ . نسبه ، حياته ، آثاره ، ميزته ، منزلته .



نسبه : هو عمر بن عبد الله ابن ابي ربيعة المخزومي القرشي . ولد ليلة قتل (١) امير المؤمنين عمر بن الخطاب فقيل « ايّ حقّ رفع وأيّ باطل وضع »

وامه مجد، سبيت من حضرموت ، او من حِمْيَر ، وكان ابوه تاجراً موسرا ، وعاملاً للنبي صلى الله عليه وسلم والخلفاء الثلاثة . فنشأ عمر في ترف ونعيم، ثم قضت مصلحة الامويين بصرف القرشيين عن السياسة، فانصرف عمر الى اللهو والعبث وكان له من جماله وثروته ومجده ما أذهب صيته بعيداً في الوسط الاسلامي المترف وقد اكسب قريشاً بشاعريته مجداً ،فاصبحت العرب تعترف لها بالسيادة التامة .

حياته : في هذا الوسط المترف ، وفي هذه الثروة الضخمة التي خلفها له ابوه عاش عمر ، وكان جميل الطلعة ، لبّاسا ، حسن الهندام فقضى ايامه لاهيا مستمتعاً ، وكانت اجمل الأيام عنده ، هذه التي يفد فيها الحجيج الى مكة ، فكان عمر يستقبل الحواجّ المقبلات

(١) لأربع بقين من ذي الحجة سنة ٢٣ هـ.

من اطراف البلاد الاسلامية فيتعرض لهن ، وربما رافقهن إلى الكعبة محرمات فيؤذن له ان يشاهد الجمال الذي يأسر قلبه وان ينعم معهن فيصفهن ويشهر بهن بشعر سلس جميل أخاذ وكانت كثيرات من الحواجّ يقصدن مكة في ايام موسمها الاكبر ليشاهدن عمر ابن ابي ربيعة ، شاعر الحب العربي .

وكان عمر الى جنب هـذه العلاقات التي يقيمها مع هؤلاء الزائرات لا يدع امرأة شريفة جميلة في محيطه إلا ويتغنى بها ، ويمجد جمالها ، وقد اقام مع الكثيرات علاقات قد تكون اقوى من هذه العلاقات التي اقامها مع الزائرات .

ولعمر مع هذه الطبقة المترفة كثير من الاخبار جمعها «الاغاني» وغيره من كتب الادب ، وهي ان دلت على شيء فانما تدل على حرية المرأة العربية في العصر الاموي ، وعلى تفهمها للشعر والادب مع المحافظة على الاخلاق ، ولزوم حدودها .

فلقد ذكر «الاغاني» انه بينما كان شاعرنا يطوف بالكعبة وقع نظره على عائشة بنت طلحة بن عبد الله وهي قرشية من بني تيم بن مرّة ، فوقعت من قلبه ، وشعرت عائشة بأن عمر مشهرها فارسلت اليه جارية لها وقالت : «قولي له : اتق الله ولا تقل هجراً ، فان هذا مقام لا بدّ فيه مما رأيت .» فقال للجارية : «اقرئيها السلام وقولي لها : ابن عمك لا يقول الا خيراً .» وانشد عمر فيها شعره وشبب بها حتى بلغ ذلك شباب بني تيم عن طريق احدهم وقال لهم : «يا بني تيم بن مرة ! ليقذفنّ بنو مخزوم بناتنا بالعظائم .» فجاء هؤلاء الى عمر ، وابلغوه ما بلغهم فقال

لهم : « والله لا اذكرها في شعر ابداً . » على انه احتال في تبليغها شعره ، وقصائده .

ويحكى انه عندما حجت فاطمة بنت عبد الملك بن مروان كتب الحجاج امير الحجاز يومئذ الى عمر ابن ابي ربيعة يحذره ويتوعده ان هو شبب بها ، بيد ان فاطمة كانت تود ان يقول فيها عمر شعراً ، ولكن لم يفعل خوفاً من الحجاج ، فلما ادت فريضة الحج وخرجت مرّ بها رجل فقالت له : « من انت ؟ » قال : « من اهل مكة » قالت « عليك وعلى اهل بلدك لعنة الله ! » قال : « ولمَ ذاك؟ » قلت : « حججت فدخلت مكة ومعي من الجواري ما لم تر الاعين مثلهن ، فلم يستطع الفاسق (١) ابن ابي ربيعة ان يزوّدنا من شعره ابياتاً نلهو بها في طريق سفرنا . » قال : « فاني لا اراه إلا قد فعل . » قالت : « فاتنا بشيء ان كان قاله ولك بكل بيت عشرة دنانير . » فمضى اليه فأخبره فقال : لقد فعلت ، ولكن احبّ ان تكتم عليّ . » قال : « افعل . » فانشده قوله :

رَاعَ ٱلْفُؤَادَ تفَرُّقُ ٱلأَحْبَابِ ،
يَوْمَ ٱلرَّحِيلِ ، فَهَاجَ لِي أَطْرَابِي (٢) .

على انه لم يقو ان يذكر اسمها خوفاً من الحجاج .

ولعمر كثير من الأقاصيص والحوادث مع الفتيات ، لأنه

---

(١) تعني عمر ابن ابي ربيعة.

(٢) الأطراب: ج طرب وهي خفة تلحق الانسان من سرور او حزن .

لم يقف حبه على امرأة واحدة بل كان كالفراشة التي تنتقل من زهرة الى أخرى ، وكالطائر الذي يحط على كل غصن ، وكان محباً صادقاً في حبه ، رغم انه كان موكلاً بالجمال يتبعه . ويروى عنه انه بعد ان قطع مرحلة الشباب وجاوزها ، شاهد مصعب بن عروة بن الزبير واخاه عثمان فأقبل عليهما وقال لهما : « يا ابني اخي لقد كنت موكلاً بالجمال اتبعه ،واني رأيتكما فراقني حسنكما وجمالكما ، فاستمتعا بشبابكما قبل ان تندما عليه . »

ومن هنا كان خطر عمر ابن ابي ربيعة على الاخلاق .

تزوج عمر كلثم بنت سعد المخزومية فولدت له ابنين احدهما (جوان) وقد استعمله بعض ولاة مكة على تبالة وهي بلدة من ارض تهامة في طريق اليمن ، وكان صالحاً ورعاً تقياً ولم يسلك طريق ابيه وفيه يقول العرجيّ :

شَهِيدي جُوَانٌ عَلَى حُبِّها
أَلَيْسَ بِعَدْلٍ عَلَيْهَا جُوَانُ ؟

على ان عمر لم يظل طوال حياته ماجناً ، فهو لما بلغ الأربعين تاب وحسنت سيرته ، حتى انه عاب رجلاً يتحدث الى امرأة في الكعبة وقد اقسم ألا يقول بيت شعر إلا أعتق رقبة ، ويحكى ان الشاعر قد اعتق تسعة من رقيقه بعد ان نظم قصيدة في تسعة ابيات . واخبار عمر بعد توبته قليلة ، ذلك لأن الرواة لم يهتموا بها اهتمامهم بحياته الضاحكة اللاّهية ،حتى ان الرّوايات اختلفت في سبب موته ، فمنها ما يشير الى ان عمر بن عبد العزيز لما ولي الخلافة

نفاه الى دهلك(١) . ومنها ما يشير الى ان سفينته قد احترقت في البحر فغرق وكان قد نوى الجهاد تكفيراً عن سيئاته ، ونحن نعلم ان عمر بن عبد العزيز ولي الخلافـة سنة ٩٩ للهجرة وان اكثر الرواة متفقون على ان عمر ابن ابي ربيعـة توفي سنة ٩٣ للهجرة في مكة ، ومن هنا يبدو اختلاف الرّوايات ، وتضارب الآراء في وفاته ، وذلك يرجع الى ما اشرت اليه من ان الرّواة لم يهتموا بحياته بعد توبته اهتمامهم بها في شبابه .

آثاره : ديوان شعر كله في الغزل والنسيب ، وقد طبع الديوان بعناية المكتبة الاهلية في بيروت ، واخباره كثيرة في كتب الادب وأشهر شعره «رائيته» كما عنت مكتبة صادر بالديوان فطبعته سنة ١٩٥٢ طبعة جيدة بتحقيق وشرح ابراهيم الاعرابي .

ميزته : يعد عمر ابن ابي ربيعة استاذَ الغزل الحضري ، كما عدّ جميل استاذ الغزل البدوي ، وليس هناك ثمة منازع ينازع شاعرنا هذه المرتبة في الغزل ، لأن الغزل العربي وجد مرة واحدة يوم كان عمر ابن ابي ربيعـة ، فهو صاحب الاسلوب القصصي ، والحوار التمثيلي ، وهو واضع القصة الشعرية في الادب العربي ، قبل ان يضع اصولها العلماء المتقدمون . وهو اول شاعر عربي خرج بالغزل العربي من حدود وصف الجسم الى تصوير العاطفة والشعور وهو مصور الحياة الحجازية المترفة ، والطبقة الارستقراطية العربية ، وشعره يكاد يكون تأريخاً لحياة المرأة الحجازية ، في

---

(١) دهلك جزيرة من بلاد الحبش في البحر الأحمر .

ادبها ووسطها الذي تعيش فيه ، وعاداتها ، وحريتها ، وشعر عمر يقوم على ركيزتين ، الاولى التشبيب ، والثانية الحوار والقصص وقد كان لشعره اثر في نفوس الشباب الحجازي ، وعنه تخرج الاحوص ، والعرجي والحرث بن خالد المخزومي على ان احدهم لم يستطع ان يجاري عمر بفنه وبشاعريته الخصبة ، ومما لا شك فيه ان عمر لم يصل دفعة واحدة الى هذه المرتبة فقد تطور شعره تطوراً بدليل قول جرير « ما زال هذا القرشي يهذي حتى قال الشعر . » وسنأتي على دراسة خصائصه ، ونلم بفنه عامة عند درسنا لعمر الشاعر .

وشاعرنا في كل مايعرض عليك مبتسم ، ضاحك ، فرح ويرى الدكتور طه حسين انه في مرتبة واحدة مع الفرد دي موسيه الفرنسي الشهير من حيث جودة الأدب ، غير ان دي موسه ، حزين باكي .

منزلته : متمم زعامة قريش في شاعريته ، وروي عن نُصيب الشاعر انه قال « عمر ابن ابي ربيعة او صفنا لربات الحجال . »

يحكى أنه بينا كان عبدالله بن عباس ابن عم النبي في المسجد الحرام (وعبدالله من نعلم في التقى والورع) وعنده نافع بن الازرق ، وأناس من الخوارج إذ اقبل عمر ابن ابي ربيعة فدخل وجلس ، فاقبل عليه ابن عباس قائلاً : « انشدنا » فانشده « أمن آل نعم ... » حتى أتى على آخرها فاغتاظ نافع واقبل على عبدالله وقال له « الله ، يا ابن عباس إنَّا نضرب اليك اكباد

الابل من اقاصي البلاد نسألك عن الحلال والحرام فتتثاقل عنا ، ويأتيك غلام مترف من قريش فينشدك :

رَأَتْ رَجلاً أَمَّا إِذَا ٱلشَّمْسُ عَارضَتْ
فَيَخْزَى ، وأَمَّا بِٱلْعَشِيِّ فَيَخْصَرُ

فقال : « ليس هكذا قال ؛ » وأنشده البيت على صحته ، ثم أنشده القصيدة برمتها ، فلامه بعض اصحابه في حفظه إياها ، فقال : « انا نستجيدها »

فإذا كان شعر عمر قد صرف ابن عباس ولو حيناً من الوقت عن ورعه وقيامه بتعليم الناس امور الدين ، من حديث وفقه فلا غرو ان يمنع عبدالله بن مصعب بن الزبير جاريتـــه من الدخول على النساء ومعها شعر عمر : فيروى انه سألها ذات مرة عن دفتر بيدها فقالت : « شعر عمر ابن ابي ربيعة » فقال : « ويحـــك اتدخلين على النساء بشعر عمر ابن ابي ربيعة ! ان لشعره لموقعاً من القلوب ومدخلاً لطيفاً ، لو كان شعر يسحر لكان هو ، فارجعي به » ففعلت ، وقال الاصمعي « عمر حجة في العربية ولم يؤخذ عليه إلا قوله :

ثُمَّ قالوا : « تُحِبُّها » قُلْتُ : بَهراً !
عَدَدَ ٱلنَّجْمِ وٱلْحَصَى وٱلتُّرَابِ . »

ويرى الاصمعي مع ما اخذه عليه في هذا القول ، انه يصح

إذ قد أتى به على سبيل الاخبار .

وكان جرير يقول في شعر عمر « هذا شعر تهامي إذا انجـــد وجد البرد » على اعتبار انه شعر رقيق لا يقوى العيش في جبال نجد حيث الشعر القوي ، ويبدو ان ثمة عداوة قائمة في الغزل بين جرير وبين عمر ، لأن جرير طبع على رقة الشعر وله غزل جيد ، إلا انه لم يصل به حظه الى درجة عمر ، لذلك اری على اغلب الظن انه كان كثيراً ما يحاول ان يحط من قيمة شعر عمر . »

ومهما يقول النقاد في عمر فهو زعيم شعراء الغزل في الأدب العربي على الاطلاق ، واستاذ الغزل الحضري .

الشاعر

على قيثارة ذات وتر واحد ، ونغم واحد انشد عمر شعره ، وغنى شبابه ، فانشد الحب في شعره وتغنى بالمرأة في شبابه ثم قضى عمره واوقف حياته ، لهذا اللحن الجميل الواحد، الذي اعجب به ، واطمأن اليه ، وآمن به ، فإذاهو من حياته او ان عمر كان منه:

إذا أنْتَ لم تَعْشَقْ ولم تَدْرِ ما الْهَوَى
فَكُنْ حَجَراً مِنْ يَابِسِ الصَّخْرِ جَلْمَدا

وينطلق عمر ، وينطلق دونما هوادة ، إلى حيث ينشد لحنه سبب وجوده كشاعر ، وسبب بقائه كأديب ، لم يكتب للأدب ان يكون فيه شاعر آخر ، او اديب آخر ، يحس بما يحس به عمر ويخرج للناس وللأدب العربي ما اخرجه .

قلت ينطلق .. في البادية، وفي اطراف الحجاز الممتدة المتسعة، وتحت ظلال النخيل ، وفي الطرق المؤدية الى الكعبة في « موسم مكة » يرقب في شوق ورجاء ، وصبر وامل ودل وتيه ، حساناً فاتنات ، يلتمس عندهن الحياة في لحظات خاطفات ، وفي

ايام معدودات ، يصورهن تصويراً دقيقاً جميلا، ويحاورهن حواراً بديعاً ويحدثهن ، ويمالقهن فإذا اعجب بهن شهرهن وخلدهن في شعر سلس جميل أخاذ ، تأخذك الرأفة به ، والنشوة منه وتطمئن مع ذلك الى هـذا الفن الجديد الذي استحدثه شاعرنا في الأدب العربي .

أَوْمَتْ بِعَيْنَيْهَا مِنَ الْهَوْدَجِ
لَوْلَاكَ في ذَا ٱلْعَامِ لَمْ أَحْجُجِ
أنتَ إلى مَكَّةَ أخرَجْتَني
ولَوْ تَرَكْتَ الحجَّ لَمْ أَخْرُجِ

ويطمئن عمر اليها ، ويطرب لهذه الاشارات الحسية في نظرات عينيها الجميلتين اللتين اوحت الى عمر ان يترجم عنها ، احساسها وشعورها ، عندما وطئت ارض مكة ، وعندما جالت ببصرها في انحاء البيت ، ترقب في شغف وتسأل في حياء ، وترجو ملحة ان ترى عمر ابن ابي ربيعة اكثر الشعراء لطفاً ، وابدعهم فناً ، وارقهم معنى ، ويتبعها عمر ربما الى مضربها ، وربما الى عرفات ، يرافقها في طوافها ، يتأملها في كبرياء ، وحذر ، وينعم الى جنبها في هـذه الساعات الخاطفة التي ينعتق فيها الانسان عن حياته الدنيـــا ، حيث يحلق في عوالم الاخلاص والصدق والنجاة ، فينعم عمر بهذا الجمال الذي مسحه الخشوع ، ومسحته التقوى ، فبدا بها رفيقا أخاذا ، وبدا ساحراً فاتناً دون ان يرجو السحر او الفتنة او يسعى اليها ، وهنا

في عرفات مع هؤلاء المؤمنين والمؤمنـــات يرجو عمر ، ويرجو صادقاً ان يكون هذا الحج شبه دائم في الحياة :

لَيْتَ ذَا ٱلْحجّ كَانَ حتماً عَلَيْنا
كُلَّ شَهْرين حِجَّةً واعْتِمَارَا

ولكن اذا قدر لهذا الحجيج ان ينصرف من على « عر فات » ويتدفق كالسيل الى « المزدلفة » ، ربما تباعد عمر عن حسنائه او تناساها وشغف بسواها ، لانها ابدع جمالاً ، واكثر فتنة ، وانضج انوثة ، واقوى سحراً ، ولأن عمر لم يعشق المرأة في ذاتها انما كان موكلاً بالجمال يتبعه :

صَادَ قَلْبي اليومَ ظَبيٌ
مُقْبِلٌ مِنْ عَرفاتِ
في ظِبـاءٍ تَتَهادَى
عَامِداً لِلْجَمَراتِ
وَعَلَيْهِ الخزُ وَٱلْقزُّ
وَوِشيُ الحَـبَراتِ
إنني لَسْتُ بناسٍ ذَلِكَ
الظبيَ حَيَاتي

فاذا سالت باعناق المطي الاباطح ، وعاد هذا الحجيج كل الى بلده ، وخرج عمر يودع الجميلات الى اطراف مكة تنامى ظبيه الجميل الجميل ، ورجع آسفاً ، حزيناً على ايام اضاعها في اللهو ، بينما قصدها سواه للرحمة والغفران :

تَرَوَّحَ يرجو ان تُحَطَّ ذُنُوبُهُ
فَآبَ وَقَدْ زَادتْ عَلَيْهِ ذُنوبُ

ويتألم عمر ، وقد يمل هذه الحياة لأيام معدودات ويخلو بنفسه وقد غابت عن مكة هذه القوافل العربية ، وافل موسم الحج ، ويشعر في قرارة ذاته بشيء من الكآبة تتداخله وتطوقه بذراعيها ، ويهدأ عمر ، ويستكين الى هذه الحياة الجديدة التي يحاول ان يألفها بعيداً عن دنياه ، وبعد ما افرط من ايامه في موسم مكة ، وإن قدر لك ان ترى عمر في هذا اليوم كذلك حزيناً كئيباً لانصرفت عنه مؤمناً اشد الايمان واقواه بانه انعتق عن حياته واطمأن الى وحدته ، ورضي جاداً غير كاره ان يظل كذلك في معزل عن الحب والجمال . ولكن هيهات ان يظل عمر كذلك وهو مبدع ذاك اللحن الذي ملك عليه شعوره ، وملك عليه حسه ، فاذا هو في حبه رهن حسه وشعوره ، واذا هو في وحدته يسترجع لحنه ، وتعاوده ذكرياته وتعاوده قوية دونما هوادة ، او لين ، ويروح عمر يسترجع نشيده ، نشيد الحياة ، كأنه خلق للحب ، وكأن الحياة إذا فقدت جمالها فقدت سبب وجودها .

ولعل عمر في وحدته قد احس بخطيئاته التي ارتكبها جملة واحدة في موسم الحج تجاه نفسه ، وتجاه من احب والتي تجاهلها حيناً مطمئناً الى هذا الجمال الزائر في ايام مكة ، ولعله مع احساسه كان يشعر بنداء حبيب الى قلبه ، جميل على نفسه ، يتفجر من اعمق اعماق ذاته فلا يقوى على الاستجابة له ، ولا يقدر عنه صبراً بعدما الح إلحاحاً غريباً وانه ليدرك ان الوصال قد يكون مستحيلاً او قد يكون متعذراً ، ومع كل هذا لا يفتأ يذكر نعماه التي انشد فيها اجمل شعره ، ويتساءل في حيرة ، أهو منصرف عنها في ساعة من الساعات ، وانه لمدرك مع احساسه وفيما يحتفظ به من سر عميق انه لا يُقبل له عذر ، ولا ترجى له شفاعة لأنه لا يقوى ان يبوح بما في نفسه ، وتراه يسألها ملحاً بعد ان يقدم البراهين على اخلاصه لها ان تصله وصلاً جميلاً ، ويرى ان لا فائدة ترجى إن هو سعى اليها ، وتقرب منها ، او ظل كذلك بعيداً عنها ، وهنا يبلغ عمر في فلسفته الشعرية اوج الحيرة ، اذ يدرك ان بعدها لن يسليه عنها ، وهو مع ذلك ، لا يقوى ان يصبر ، ويظل بعيداً ، وهب انه اذال كل هذه العقبات وتوصل اليها ، فهناك عقبة اخرى اجل من هذه العقبات جميعاً ، لو عرضت لرجل يفكر في امره لتجاهل هذا الحب ولخاف من عاقبته ولما تعرض في زيارته لها ، لهذا الخطر الذي سوف يداهمه من اقربائها الذين يضمرون له الحقد والبغضاء وانهم لشدة حقدهم عليه وكرههم إياه ليبدو على

قسمات وجوههم اثر هذه العداوة المتأصلة في نفوسهم الكامنة في قلوبهم :

أَمِنْ آلِ نُعْمٍ أَنْتَ غادٍ فَمُبْكِرُ،
غَدَاةَ غدٍ، أَمْ رَائِحٌ فَمُهَجِّرُ ؟
لِحَاجَةِ نَفْسٍ لم تَقُلْ في جَوَابِهَا
فَتُبْلِغَ عُذراً، والمَقَالَةُ تَعْذِرُ
تَهِيمُ إلى نُعْمٍ، فَلَا ٱلشَّمْلُ جَامِعٌ
ولا ٱلحَبْلُ مَوْصُولٌ، وَلا ٱلْقَلْبُ مُقْصِرُ
ولا قُرْبُ نُعْمٍ إنْ دَنَتْ لَكَ نَافِعٌ
وَلاَ نَأْيُهَا يُسْلِي، ولا أَنْتَ تَصْبِرُ
وَأُخْرَى أَتَتْ مِنْ دُونِ نُعْمٍ، ومِثْلُهَا،
نَهَى ذَا ٱلنُّهى لو تَرْعَوِي أوْ تُفَكِّرُ
إذَا زُرتُ نُعْماً لَمْ يَزَلْ ذُو قَرَابَةٍ
لَهَا، كُلَّمَا لاَقَيْتُهُ يَتَنَمَّرُ
عَزِيزٌ عَلَيْهِ أَنْ أُلِمَّ بِبَيْتِهَا
يُسِرُّ لِيَ ٱلشَّحْنَاءَ والْبُغْضُ مُظْهَرُ

فإذا مر شاعرنا بهذه الخيالات، والاطياف التي تراوده من «نعم» ومر بها وئيداً غير عجلان واحس ان قلبه راح يخفق للقياها، وان ذاك النداء الذي كان يسأله ان يستجيب له رجـــاءه ما زال كعهده به قويا، راح يلتمس من احد اصدقائه ان يحمل اليها سلامه، مؤكداً له صلته بها ملحا عليه ان يبلغها شوقه وأن يذكرها بلقائها عند مجرى الماء، حيث حدثته حديثها، وان امره اصبح حديث الناس جميعا.

وتراه يسأل صديقـــه ان يحمل لها تحيته، لانه إن حاول ان يزورها بنفسه، ويسعى اليها بذاته، سيُعرف امره.

أَلِكْنِي إِلَيْهَـا بِالسَّلَامِ ، فَـإِنَّهُ
يُشَهَّرُ إِلْمَامِي بِهَـا وَيُنَـكَّرُ
بِآيَـةِ مـا قَالَتْ غَدَاةَ لَقِيتُهَـا
بِمَدْفَعِ أَكْنَانٍ: «أَهذَا الْمُشَهَّرُ.»

وهنا تروح الذكريات التي عاش لهـا عمر حياته تتدفق عليه، وتحيط به في شيء من حب، وكثير من رجاء، وتحاول ان تبلغ من نفسه، سبب وجوده حتى تكون هي وجوده، ويحلق فيها عمر ويدرك انها تتمة اللحن، او انها مطلعه، او قل ان شئت احد مطالع اناشيد عمر، وتراه يستعيد في شيء من خشوع وقفتها ذات يوم إلى جانب شقيقتها تحدثها وتسألها ان تقف وتتطلع لترى عمر المغيري وتراه يسترجع حديثها وكيف سألت شقيقتها مستغربة،

كيف اعجبت به ، واطرت جماله ، واحسنت الثناء عليه حتى شغفت به ، ولم تعد تنساه ، ولن تنساه ابد الدهر ، ولو قدر لها ان تفارق هذه الحياة وانه لمعجب بهذا الحديث ، مطمئن اليه ، راض عن شقيقتها كيف أكدت فيه رأيها السابق ، وانها ما زالت كما عهدها صادقة في ولائها له ، واخلاصها نحوه ، ثم انه معجب مع ذلك بتعليلها لسوء حاله ، وتغير شكله ، وان الذي بدل حاله اسراعه في منتهى الليل ، وسيره في اشد الساعات حراً ، وهنا في هذه المقاطع الشعرية وفيما يليها من مقاطع اخرى يبدو حوار الشقيقتين واضحا جليا يزيد هذا الشعر رونقا وجمالاً ويزيد في قوة سبكه ووضوح معناه ويجعل لشعر عمر ابن ابي ربيعة ميزة خاصة عن شعر سواه من الغزليين ، هذه الميزة التي ابتكرها شاعرنا واختص بها ، ولم يقو سواه من الشعراء الذين طرقوا موضوع الحب في شعرهم ان يجاروه فيها ، لما افاض عمر على هذا الشعر من روحه ، وحسن بيانه فغدا سلسا عذبا تطمئن إلى قراءته ، وتعجب بفنه ، وتهتز لمعناه :

قِفِي فَانْظُرِي أسماءُ هَلْ تَعْرِفِينَهُ
أَهذَا المغيريُّ ٱلَّذي كانَ يُذكَرُ

أَهذَا ٱلَّذي أَطْرَيْتِ نَعْتاً فَلَمْ أَكُنْ
وَعَيْشِكِ أَنساهُ إلي يَوْمَ أُقْبَرُ

فَقَالت « نَعمْ لاَ شَكَّ غَيَّرَ لَوْنَـهُ
سُرَى اللَّيْلِ يُحْيي نَصَّهُ وَالتَّهَجُّرُ »

فاذا ما قدم عمر في ابياته بدء حوار الشقيقتين ، راح يحدثنا باسلوبه كيف ان شقيقتها اعجبت به ، واكدت - إن كان هو عينه الذي تعرفه - انه تغير عن عهدها به ، وانها مؤكدة ان الانسان في هذه الحياة كثيراً ما يتبدل ، ولا غرو ان يتبدل شاعرنا في شكله ومظهره لأنه امرؤ لا يستقر في مكان ولا يرضى بالهدوء فهو كثيراً ما يُعرض نفسه للشمس تارة ، ولسير الليل تارة اخرى ، وان الانسان اثناء سفره في الليل والنهار كثيراً مايتحمل المشاق ويتعرض للأهوال والاخطار ، وان عمر شاعرنا من هؤلاء الذين يحبون الاسفار ، ويجوبون الارض فكم قذفت به فلاة الى اخرى حتى غدا من كثرة اسفاره متلبد الشعر مغبر الرأس ، وانه لولا بقية من نعمة تظهر عليه في ردائه المحبر لما عرفته ، ذلك انه بدا نحيلاً على ظهر مطيته ، شاحب اللون ، خائر القوى ، هزيل الجسم ، ضعيف الحركة ، ثم ترى عمر بعد ان ينتهي من وصف حوارهما وما دار بينهما يروح فيصور لك حالتها ، وانها ذات نعمة قد اعتادت الترف والسخاء واطمأنت الى قصرها الجميل ، الذي تحوط به الاشجار الباسقة الفرعاء ، والحدائق الغنـاء ، واطمأنت الى وليها السعيد الذي كفاها مؤونة كل شيء ، وكفاها مؤونة التفكير في امورها اثناء الليل فلم يعدهناك شيء يؤرقها ، ويذهب عنها النوم ويدعها تفكر في امورها ، وان امرأة هذا

محيطها ، وهذا وسطها فمن حقها ان تتنكر لشاعرنا وتستغرب حاله ، وترثي له ، ولعل هذا التعليل الجميـــل الذي وصل اليه عمر ابن ابي ربيعة ،ليبين لنا في وضوح كياسته ،وكيف ان شاعرنا كان لبقاً حتى في تعليلاته التي كان يرجو منها ، ويرجو ملحاً ان يظهر جماله وترفه ، ويظهر حب النساء له :

لَئِنْ كَانَ إِيَّاهُ ، لَقَدْ حَالَ بَعْدَنَـا
عَنِ ٱلْعَهْدِ ، وَٱلإِنْسَانُ قَدْ يَتَغَيَّرُ
رَأَتْ رَجُلاً أَمَّا إِذَا ٱلشَّمْسُ عَارَضَتْ
فَيَضْحَى ، وَأَمَّا بِٱلْعَشِيِّ فَيَخْصَرُ
أَخَا سَفَرٍ ، جَوَّابَ أَرْضٍ ، تَقَاذَفَتْ
بِهِ فَلَوَاتٌ ، فَهْوَ أَشْعَثُ أَغْبَرُ
قَلِيلاً عَلَى ظَهْرِ ٱلْمَطِيَّـةِ ظِلُّهُ
سِوَى مَا نَفَى عَنْهُ ٱلرِّدَاءُ ٱلْمُحَبَّرُ

ويظل عمر يسترجع كل هذه الذكريات ويعيش بها في وحدته ويعرف بهذه الابيات (نعم) وكأنه في تعريفه إياها يضع مقدمة لقصيدة ذات طابع خاص ، وميزة خاصة سنحاول جهدنا تحديدها وابداء الرأي فيها ، والمقارنة بين آرائنا وآراء النقاد الذين درسوا عمر ابن ابي ربيعة وحاولوا جهدهم تحديد موقفه من هذا الفن الذي

يبدو واضحاً في شعره واعني به (الفن القصصي في الأدب العربي) وهل كان عمر فيه مقلداً ام مبتكراً .

حتى اذا ما انتهى من ذلك عرف (نعـماه) مبيناً طبقتها ، ومحيطها ومركزها ، ومحـدداً امكانياتها جميعاً وكيف عرفها واتصل بها ، راح يصف لنا بشعر رقيق عذب تأخذك النشوة ، والاعجاب به زيارةً من زياراته الخاطفة لها ، وكيف عبث بهذه الزيارة بكل تلك العقبات التي ما كان ليخشاها ، غـير عابىء بهؤلاء الذين ناصبوه العداوة ، وجاهروه بالحقد ، ولعـل عمر في هذا الوصف الدقيق يبلـغ الذروة في الفن والتصوير ، وابداع الحقائق التي عاشها ، وعاش لها بكليته ، بوجوده وشبابه ، وترفه ولطفه ودعابته وسحر تعبيره ، حتى ان هذه الحقائق غدت وثائق للعصر الاول من صدر الدولة الاسلامية ، وغدت مرجعاً يرجع اليها المؤرخ والاديب ، والناقد اذا اراد ان يؤرخ او يدرس اوضاع الحجاز ، وترف النساء في الصدر الاول للدولة الاموية ، وكيف لا تعتبر هذه القصائد التي تركها عمر وثائق تعتمد ، وقد بلغت كما قدمت الذروة في التصوير والفن والابتكار يخرجها عمر ويحيطها بهالة من الجمال والسحر ، ونراه اذ يحاول زيارة (نعم) حبيبته يسعى اليها في ليلة مقمرة متحملاً من اجلها مشاق السير ليلاً ، حذراً في سيره ، متطلعاً لعلّ احداً يرقبه حتى اذا بلغ هذا الموضع (ذي دوران) راح هناك يرقب في حذر ورهبة رفاقاً قد قطنوا في حيّها ، وحول بيتها ، ونراه يمد فيهم نظره ، ويمد حول البيت سمعه ، وفيما حول البيت لعل صوتا يبلغ اذنيه ، او

حركة تنبئه ، ان هناك في الخفاء شيئاً ، وان شاعرنا ليقـــدر في هذه الساعة موقفـــه ، وانه كان مغامراً ، مقدماً على شيء من الصعب ان يقدم عليه من يفكر في امره ، ولكن هو الحب دفعه ان يتجشم السير ، وان يقف هذا الموقف ، وان يدع ناقته بالقرب منه في الخلاء ، لا شجرة تسترها ولا بيت تحط عنده ، او بالقرب منه ، وقد كان رحلها ظاهراً لاعين الناس ، ولعل الناقة في موقفها هذا في الخلاء كانت تزيد من خوف عمر وحذره حتى انها تركت في قصيدته هذا البيت يصفها فيه . او قل ان شئت : ان مخيلة الشاعر كانت تحيط بالاسباب جميعا حتى انها ـ « وهنا دلالة اخرى على ان عمر كان شعره طوع حسه » ـ دفعته ان يصورها ، وان يكون حذراً في هذا الليل الذي كان قد اطبق عليه بظلمته وبنور القمر الذي بدا شاحباً يضيء جوانب الارض ، واطراف الرّبع هناك :

وَلَيْلَةَ ذِي دَوْرَانَ جَشَّمْتِنِي ٱلسُّرَى ،
وَقَدْ يَجْشَمُ ٱلْهَوْلَ ٱلْمُحِبُّ ٱلْمُغَرِّرُ
فَبِتُّ رَقِيبَاً لِلرِّفَاقِ عَلَى شَفَا ،
أُحَاذِرُ مِنْهُمْ مَنْ يَطُوفُ ، وَأَنْظُرُ
إِلَيْهِمْ مَتَى يَسْتَمْكِنُ ٱلنَّوْمُ مِنْهُمُ ،
وَلِي مَجْلِسٌ ، لَوْلَا ٱللُّبَانَةُ ، أَوْعَرُ

وَبَاتَتْ قَلُوصِي بِالْعَرَاءِ ، وَرَحْلُهَا ،
لِطَارِقِ لَيْلٍ ، أَوْ لِمَنْ جَاءَ ، مُعْوِرُ

ويرقبُ عمر ويتطلعُ ، يرقبُ نفسه ، ويتطلع الى ذاته والى ما حوله وهو ما زال يمد حول بيتها نظره ، وفي الأصوات سمعه يسأل نفسه ويتساءل اين هي من بين هـــذه النساء القائمات في مضاربهن ، واين مضربها من هذه المضارب المنتشرة في هذا الموضع وكيف يقدر ان يصل اليها في هذه الساعة من ساعات الليل والقمر بعد في ايامه الاولى ، ينشر على تلك الهضاب ضياءه ويبعث نوراً ضعيفاً من غير شحوب ، ولم يلبث عمر غير قليل حتى انتشر من حوله عبير سحري فاتن كان يهب من ناحيتها فيدله عليها ، ولم يكن هناك بالحقيقة ثمة عبق يفوح ، انما كان هناك الهام ووحي من هذا الذي يحوط بالمرء في اجمل عمره ، وافتن ايام حياته ، فيدله على من وهبها قلبه ، واوقف لها شطراً من شبابه ، ومع ان شاعرنا قد الهم اين خباؤها ، واين هي لم يقو على السعي اليها وظل كذلك وقتاً ما ، حتى اذا غـــاب القمر الذي كان يرجو غيابه ، وخفتت تلك الاصوات التي كانت تطرق سمعه ، واقبل هؤلاء الرعاة الذين كان ينتظر اوبتهم ، واخذوا امكنتهم من هذه المضارب ، واطفئت تلك المصابيح الزيتية التي اشعلت في المساء ، استعد للقيا « نعم » وسرعان ما انساب اليها ، كما تنساب الحية في خفة ورشاقة ودونما ان يشعر به احد وكان اكثر جسمه يميل الى جهة معينة من الطريق لشدة حذره ، وكان راغباً اشد الرغبة

في الاحتفاظ بتوازنه ، حتى وصل الى مضربها ، وحيّاها بصوت خافت قطعه الخوف وحال حذره دون خروجه قوياً ، وارتباكه ووجومه من هذه المفاجأة التي اعد لها عدّته من قبل ، واستقبلته « نعماه » واجمة حائرة حتى انها لشدة حيرتها كاد صوتها يرتفع ، وكادت ترد عليه تحيته بكلام لم يكن ليتوقعه منها في هذه الزيارة الخاطفة ، ولكن تمالكت ، وتجلدت وعضت بنانها من شدة الدهشة التي ألمت بها عند زيارته وراحت توبخه في شيء من رفق و كثير من لطف وتقول له انت امرؤ قد احاطك الرقباء ، وراقبتك عيونهم امرك السهل عسير ، يؤولونه على غير حقيقته ، يذهبون في تأويلهم له شتى المذاهب ، يعللونه وفق مفاهيمهم ، فكيف بهذا الأمر العسير الذي اقدمت عليه وأشركتني فيه ، ولكن سرعان ما تتراجع وتحاول ان تغير مجرى حديثها ، فيتبدل حقدها حباً ، وتوبيخها حذرا عليه ، وتسأله في رفق ، « حفظك الله ورعاك ، ألم تخف حين استسهلت المجيء الينا ، واعـــداؤك حولي يرقبونك وينتظرونك ؟ » وانها لتسأله ايضاً دونما عنف عن سبب زيارته لها ، أهي الحاجة الملحة الشديدة دفعت به اليها ، أم انه قد ايقن ان اعداءه قد اطمأنوا الى نومهم العميق :

وَبِتُّ أُنَاجِي ٱلنَّفْسَ « أَيْنَ خِبَاؤُهَا ؟

وَكَيْفَ لِمَا آتِي مِنَ ٱلْأَمْرِ مَصْدَرُ ؟ »

فَدَلَّ عَلَيْهَا ٱلْقَلْبَ رَيَّا عَرَفْتُهَا
لَهَا ، وَهَوَى ٱلنَّفْسِ ٱلَّذِي كَادَ يَظْهَرُ
فَلَمَّا فَقَدْتُ ٱلصَّوْتَ مِنْهُمْ وأُطْفِئَتْ
مَصَابِيحُ شُبَّتْ فِي ٱلْعِشَاءِ ، وأَنْوُرُ
وَغَابَ قُمَيْرٌ كُنْتُ أَرْجُو غُيُوبَهُ ،
وَرَوَّحَ رُعْيَانٌ ، وَنَوَّمَ سُمَّرُ
وَنَفَّضْتُ عَنِّي ٱلنَّوْمَ أَقْبَلْتُ مِشْيَةَ ٱلْـ
حُبَابِ ، وَرُكْنِي خَشْيَةَ ٱلْقَوْمِ ، أَزْوَرُ
فَحَيَّيْتُ إِذْ فَاجَأْتُهَا ، فَتَوَلَّهَتْ ،
وكَادَتْ بِمَخْفُوضِ ٱلتَّحِيَّةِ تَجْهَرُ
وَقَالَتْ وَعَضَّتْ بِٱلْبَنَانِ : « فَضَحْتَنِي !
وَأَنْتَ ٱمْرُؤٌ ، مَيْسُورُ أَمْرِكَ أَعْسَرُ ! »
أَرَيْتَكَ ، إِذْ هُنَّا عَلَيْكَ ، أَلَمْ تَخَفْ !
وُقِيتَ ، وَحَوْلِي مِنْ عَدُوِّكَ حُضَّرُ ؟ »

« فَوَ اللهِ مَا أَدْرِي ، أَتَعْجِيلُ حَاجَةٍ
سَرَتْ بِكَ،أَمْ قَدْ نَامَ مَنْ كُنْتَ تَحْذَرُ ؟»

ويتركها عمر تذهب في توبيخها وعتابها له هذا المذهب وكان قد اطمأن اليها في هذا العتاب ، وهذا التوبيخ ووجد فيه متعة لنفسه ، وسبباً من اسباب الوصال وانها لو لم ترض عنه لما استقبلته ولما ذهبت هذا المذهب في حديثها معه ، لذلك لم يبـــد حراكا امامها حتى إذا انتهت من حديثها معه ، راح يقدم لهـا شوقه ، ويعتذر عن قدومه في هذه الساعة من ساعات الليل ، وكيف ان الشوق دفعه اليها ، وتراه يطمئنها ويهدىء من روعها وان الناس كلهم قد ناموا وليس هناك من يرقبها ، او ينظر اليهما ، او يفكر بهما في مثل هذه الساعة ، حتى إذا اطمأنت له وآمنت بصدق حديثه مدت اليه يدها وابتسمت ملء ثغرها ، وهدأ روعهـا وسألت السماء ان يحفظ لها شاعرها ، ثم نادته في حياء وحب ، ونادتـــه باسمه الحبيب الجميـــل وطمأنته انه اميرها وحبيبها ، ما بقي عندها ، عزيز ما مكث في مضربها :

فَقُلْتُ لها « بل قَادَنِي ٱلشَّوْقُ وَٱلْهَوَى ،
إِلَيْكِ ، وَمَا عَيْنٌ مِنَ ٱلنَّاسِ تَنْظُرُ »
فَقَالَتْ ، وَقَدْ لَانَتْ وَأَفْرَخَ رَوْعُهَا :
« كَلَاكَ بِحِفْظٍ رَبُّكَ ٱلْمُتَكَبِّرُ ! »

«فَـأَنْتَ، أَبَا الْخَطَّابِ، غَيْرَ مُدَافِعٍ ،
عَلَيَّ أَمِيرٌ ، مَا مَكَثْتَ ، مُؤَمَّرُ . »

ويطمئن عمر الى مجلسها في هذا الليل ، وينعم الى جنبها باجمل ساعات عمره ، وابدع لحظات حياته ، ويحلق معهـا في عوالمه ، وينعمان معاً بلقاء جميل حبيب الى نفسيهما ، ويطمئنان وقدحواهما الليل ولفتهما الظلمة ، واقبل كل على صاحبه ، ويرضى عمر عنها ، وقد وهبته قلبها ، وألقت نفسها بين يديه ولم يكن عمر ضنيناً بما القيَ اليه ، فتقبلها بكليته ، بروحه ونفسه ، وتقبلها بذاته وحنانه وكيف كان ثغرها يبدو جملة واحدة لطيفا ناعما ، حتى إذا خلص وقبل فاها ، فأكثر تقبيله وما كان ليحس وهو الى جنبها ان الليل مسرع في هذه المرة ، وانه سرعان ما ينقضي لأن عمر لم يكن يعبأ لليل ويهتم به ، وليس له ثمة من شأن معه ، وان كان عمر كذلك فلم يكن الليل ايضاً ليغير من مواعيده ، فلقد كان جاداً في سيره بالغاً نهايته في هـــذه اللحظات التي اجبرت عمر ان يكترث للأمر ويعدُّ له عدته ، ان يؤمن بأن الليل قد انقضى اوكاد وله ان يعتقد ان ليله كان قصيراً ، وانه لم يكن من قبل كذلك لانه كان سعيداً وكان مبتهجا في لقائه مع نعماه ، وتراه وقــد ادرك ان الصبح قد حان يصور لك تلك الساعات الخاطفة التي نعم بها مع حبيبته ، ويصور لك ثغرها الجميل واسنانها وكيف كانت إذا افتر ثغرها بدت كنوّار الأقحوان ، او كحبـــات البرد ، من ذلك راح يرسم لك نظراتها الثاقبة اللاهبة ، وكيف كانت

ترنو اليه بشيء من عطف وكثير من حب ورجـــاء ، حتى انها كانت لتبدو بنظراتها كجؤذر (١) وسط خميلة طالت اشجارها ، ولم يقو ان يتناول ثمارها ، فأخذ يلتفت إلى القطيع بذل ورحمة ، كأنه يسأله ان يمد له يد المعونة ، واي حنان ابدع من هذا الحنان واية صورة لحسناء ترمق إنسانها بعينيها ابدع من هذه الصورة التي اخرجها عمر مكتملة الأجزاء ، محدودة الغرض ، تامة المعنى ، وعمر ان يأسف على شيء في هذه الجلسة الهادئة الوديعة فانما يأسف على الليل كيف انقضى ، وعلى هذا اللقاء الذي اطمأن بـه اليها ، ولم يكدر فيه عليهما احد امنهما ، وحبهما ، ولقاءهما .

فَبِتُّ قَرِيرَ ٱلْعَيْنِ أُعْطِيتُ حَاجَتِي

أُقَبِّلُ فَاهَا فِي ٱلْخَلَاءِ فَأُكْثِرُ

فَيَالَكَ مِنْ لَيْلٍ تَقَاصَرَ طُولُهُ ،

وَمَا كَانَ لَيْلِي قَبْلَ ذَلِكَ يَقْصُرُ

وَيَا لَكَ مِنْ مَلْهىً هُنَاكَ وَمَجْلِسٍ

لَنَا ، لَمْ يُكَدِّرْهُ عَلَيْنَا مُكَدِّرُ

يَمُجُّ ذَكِيَّ ٱلْمِسْكِ مِنْهَا مُفَلَّجٌ

رَقِيقُ ٱلْحَوَاشِي ذُو غُرُوبٍ ، مُؤَشَّرُ

---

(١) الجؤذر : ولد البقرة الوحشية تشبه به الحسان لجمال عينيه .

تَرَاهُ إِذَا تَفْتَرُّ عَنْـــهُ ، كَأَنَّهُ
حَصَى بَرَدٍ ، أَوْ أُقْحُوانٌ مُنَوَّرُ
وَتَرْنُو بِعَيْنَيْهَا إِلَيَّ ، كَمَا رَنَا ،
إِلَى رَبْرَبٍ ، وَسْطَ الْخَمِيلَةِ جُؤْذَرُ

ولم يكن عمر جامداً في لقائه لها ، ولم يكن خائفاً وجـــلا وإنما كان يبادلها حباً بحب ، ويمد نظره في وجهها المشرق الضاحك وفي افترارات ثغرها الباسم ، ويبادل نظراتها بنظرات اقوى حدة ، واكثر حناناً ، وقد انعتق في نظراته عن ذاته وعلق بمن وهبته حياتها ، ووهبته أعز ما تملك في الحياة ، فقدمت قلبها قرباناً على مذبح حبه ، فغدا بما قدم عـــلى مذبحه من قلوب شاعر الحب العربي ، وشاعر المرأة العربية يبدعهـــا كيفما شاء ، وأنى شاء فيصورها تصويراً حسياً دقيقـــا ، ويصور مع ذلك احساسه وشعوره ، وخوالج نفسه ، ولواعج ذاته هـــذه التي احسها الجاهليون من قبل فلم يقووا جميعا على تصويرها وتحديدها في الادب العربي على الاطلاق حتى قال احد النقاد في ذلك « لم يوجد الغزل في الادب العربي الا مرة واحدة ، ولم يحمل لواءه سوى شاعر واحد هو عمر ابن ابي ربيعة » (١)

ولكن اني لعمر بعد ذلك ، بعد ان قضى مع نعماه ساعات

---

(١) الدكتور طه حسين في كتابه حديث الاربعاء . عمر ابن ابي ربيعة .

في الليـــل المظلم الضاحك ، ان يستمر في لقائه لها في هذه الليلة وقد اخذت النجوم تغيب اثر بعضها ولم يعـــد هناك في السماء ما يشير الى ان الليل ما زال قائماً وها ان (نعم) قـــد احست ذلك ، وأحست ان صوتاً خشناً في الحي قد علا ، وراح ينادي جماعات القوم ان تهب من سباتهـــا العميق ، واوجست «نعم» خيفة في نفسها ورأت ان صاحبها لم يعبأ لهذا الصوت ولم يكترث له وانه مازال الى جنبها ينعم بلقائها ، لذلك اخذت تتوسل اليه في لطف ورجاء ان يستجيب لهـــذا الصوت وان ينصرف دون ان يشعر به احد ، ولما رأته مازال كعهدها به غير مبال لتوسلاتها ، اقسمت ملحة انها ستلقاه عند «عزور» هذا الجبل القائم بين مكة والمدينة . ومـــا كان عمر ليرضى عن توسلاتها لو لم يخفه ذاك الصوت الخشن الذي طرق سمعه في هذه المرة ، وطرقه قوياً في شيء من عنف وشدة ، وقد ايقن ان الليل قد انقضى ذلك انه رأى السماء قداشربت بنور الشمس ، فبددت ظلام الليل ، وألقت خيوطاً من ضوئها المحجب على الهضبات المترامية من حوله ، ومع ان شيئاً من الروعة قد ملك فؤاده لم يبد حراكا ، لانه ما كان ليرضى عن نفسه ان يبدي ما يضمر من الخوف امام (نعم) التي رأت ان طلائع القوم اخذت تستفيق فراحت تتوسل اليه ، وتتوسل مسترحمة وتسأله ان يحدد موقفه من ذلك ، فتراه يعلن لها بشيء من صراحة انه ماكث لديها مظهر عداوته لهم مباديهم ، فاما ان ينجو منهم ، او ان يثأروا لانفسهم فيردونه قتيلاً ، ولعله كان متكلفا في ذلك ، مغاليا في ادعائه هذا ، فهو

بالأمس لم يجسر على زيارتها حتى اطمأن الى ان هذه الجماعات قد رقدت وأن الاصوات قدانعدمت ، وان الرعاة قد راحوا وان القمر قد غاب ، وها هو الآن يود ان ينازل خصومه ، ويقاومهم ولعل صوتاً في هذا الحين قد راودها ، وهو صوت عمر ساعة لقيها ، وراح يستدر عطفها ، ويؤكد لها ان ليس هناك من يرقبها وانه انتظر طويلاً حتى اطمأن الى خلو المكان من كل نائرة حتى جاء اليها يسعى ، وتحتار «نعم» كيف توفق بين كلامه ساعة لقيها ، وادعائه الآن ، وكيف تحتال عليه لتصرفه في هذه الساعة المبكرة من الصباح ، قبل ان يفضح امرهما ، وينكشف سرهما ، ولما لم تجد سبيلاً الى قلبه اقرب من ان تسأله في عطف وتسترحمه دون ذل راحت تحدثه حديث القوم ، وان عمله هذا في منازلتهم سيؤكد للملأ قول الوشاة فيها ، وانها لتسأله ان يختار امراً آخرا ، وتذهب في استعطافه ، واسترحامه ، ما قدر لها في تلك اللحظات الخاطفة أن تفعل ، وعمر لا يجيب شيئاً وكأنه لم يكترث لتوسلاتها ولرجائها ، ولم يرض كرجل ان يتنازل عن رأي اعلنه ، لذلك اشارت عليه انها ستقص على شقيقتيها حديثهما وليس هناك ثمة من عائق يحول دون اطلاعهما على امرهما وما بينهما من حب ، ولعلهما تدبران له حيلة ينجو بها مما هو فيه ، وان تكونا ارحب صدراً ، واوسع تفكيراً منها ، ولم يجب عمر ، ولم يعلن في ذلك رأيه ، ولعله رضي ضمنا عن هذا الاقتراح ، لذلك قامت (نعم) كئيبة حزينة كالحة الوجه من شدة ما ألم بها من الحزن وانها لشدة حزنها اخذت تبكي في حياء وترجو شقيقتيها ملحة ان تعيناها على فتى أتى

زائراً ، وانهما باستطاعتهما ان تدبرا له مخرجا دون ان يشعر به احد في هذه الساعة ، او ان ينفضح سرهما ، وما ان سمعت أختاها بهذا الأمر ، حتى ارتاعتا بادىء ذي بدء ، ولكن عندما عرفتا ان عمر هو هذا الزائر المولّه ، قالتا لها خففي عنك ، فالأمر يسير ، وليس هناك ما يستدعي هذا الخوف والوجل ، « يقوم يسير بيننا متنكراً فلا سرنا يفشو ولا هو يظهر » ، وهكذا ارتدى عمر عباءة نعم وخرج من مضربها ، وحرسه في هذا الخروج حسناوات ثلاث ، احداهن بالغة الشباب مكتملته واثنتين ما زالتا في اول عهدهما بالصبا :

فَلَمَّـا تَقَضَّى ٱللَّيْـلُ إِلَّا أَقَلَّهُ
وكَادَتْ تَوَالِي نَجْمِـهِ تَتَغَوَّرُ

أَشَارَتْ : « بِأَنَّ ٱلْحَيَّ قَدْ حَانَ مِنْهُمُ
هُبُوبٌ ، وَلَكِنْ مَوْعِدٌ لَكَ عَزْوَرُ »

فَمَا رَاعَنِي إِلَّا مُنَادٍ : « تَرَحَّلُوا ، »
وَقَدْلاَحَ مَفْتُوقٌ مِنَ ٱلصُّبحِ ، أَشْقَرُ

فَلَمَّا رَأَتْ مَنْ قَدْ تَنَبَّهَ مِنْهُمُ ،
وَأَيْقَاظَهُمْ ، قَالَتْ : « أَشِرْ كَيْفَ تَأْمُرُ ؟ »

فَقُلْتُ أَبَادِيهِمْ فَإِمَّا أَفُوتُهُمْ ،
وَإِمَّا يَنَالُ ٱلسَّيْفُ ثَأْراً فَيَثْأَرُ »
فَقَالَتْ : « أَتَحْقِيقاً لِمَا قَالَ كَاشِحٌ
عَلَيْنَا ، وَتَصْدِيقاً لِمَا كَانَ يُؤْثَرُ
« فَإِنْ كَانَ مَا لَا بُدَّ مِنْهُ فَغَيْرُهُ
مِنَ ٱلْأَمْرِ ، أَدْنَى لِلْخَفَاءِ ، وَأَسْتَرُ »
« أَقُصُّ عَلَى أُخْتَيَّ بَدْءَ حَدِيثِنَا ،
وَمَالِيَ مِنْ أَنْ تَعْلَمَا مُتَأَخَّرُ »
« لَعَلَّهُمَا أَنْ تَطْلُبَا لَكَ مَخْرَجاً ،
وَأَنْ تَرْحَبَا صَدْراً بِمَا كُنْتُ أَحْصَرُ »
فَقَامَتْ كَئِيباً لَيْسَ فِي وَجْهِهَا دَمٌ ،
مِنَ ٱلْحُزْنِ تُذْرِي عَبْرَةً تَتَحَدَّرُ
فَقَالَتْ لِأُخْتَيْهَا : « أَعِينَا عَلَى فَتًى
أَتَى زَائِراً وَٱلْأَمْرُ لِلْأَمْرِ يُقْدَرُ

فَأَقْبَلتَا فَارْتَاعَتَا ، ثُمَّ قَالَتَا :
«أَقِلِّي عَلَيْكِ اللَّوْمَ فَالْخَطْبُ أَيْسَرُ»
يَقُومُ يَمْشِي بَيْنَنَا مُتَنَكِّراً
فَلاَ سِرُّنا يَفْشُو، وَلاَ هُوَ يَظْهَرُ
فَكَانَ مِجَنِّي دُونَ مَنْ كُنْتُ أَتَّقِي
ثَلاثُ شُخُوصٍ : كَاعِبَانِ وَمُعْصِرُ

ويرضى عمر عن هذا المخرج ، ويطمئن الى سيره ، بينما يتهادى بينهن جميعاً ، ولا يحاول ان يحدثهن حديثه ، او ان يبوح لهن بما يراوده ، ولعله كان يلتزم اللياقة في هذا الهدوء ، او انه كان خجلاً منهن على ازعاجه لهن في هذه الساعة المبكرة من الصباح ، إلا انهن لم يرضين ان يودعهن هكذا بشيء من جفاء ، فإذا اجتازوا معه ساحة الحي قلن له ، وقلن في حياء وحذر ، ألم تخشَ اعداءك والليل مقمر ، استظل كذلك طوال حياتك ، غير مبالٍ لأمر من الأمور سوى لأمر قلبك ، ام تفكر بعد ذلك في شؤونك وتضع لنفسك حداً في كل هذا ، حتى اذا رأين ان عمراً قد اضطرب لكلماتهن قلن له مداعبات ، اذا حاولت زيارتنا مرة اخرى ، فانظر في الابعاد حيث لا نكون، كي يظن اعداؤك ان الحب حيث تنظر ، وودعنه ، وعدن مبتسمات راضيات عن عمر، معجبات به .

فَلَمَّـا أَجَزْنَا سَاحَةَ الْحَيِّ قُلْنَ لِي :
« أَلَمْ تَتَّقِ الأَعْدَاءَ وَاللَّيْـلُ مُقْمِرُ
إِذَا جِئْتَ فَامْنَحْ طَرْفَ عَيْنَيْكَ غَيْرَنَا
لِكَيْ يَحْسَبُوا أَنَّ الْهَوَى حَيْثُ تَنْظُرُ

وينصرف عمر ، ويودعهن بعينيه وقلبه ، ويودع نعماه حبيبة نفسه ، وامل ذاته ، ويروح فيخلد العامرية قبيلتها بنشرها اللذيذ الذي سيذكر عنها ابد الدهر وان ينس لن ينسى هذا اللقاء الجميل ، الخالد في نفسه ، والخالد في ادبه :

هَنِيئاً لِأَهْلِ الْعَامِرِيَّةِ نَشْرُهَا اللَّذِيذُ وَرَيَّاهَا الذي أَتَذَكَّرُ

هذه رائية عمر ، اجمل شعره وذروة فنه ، والقمة التي وصل اليها في ابتكار المعنى وتنسيقه عرضناها واشرنا الى مواطن الجمال الفني فيها ، وإلى حاجة عمر منها ، إذ يحاول فيها ان يعرض لأعظم قصة في حياته ، مكتملة الاجزاء ، تامة المعنى ، واضحة الغرض ، اخرجها عمر قطعة فنية خالصة ، وكأنه كان يعرض فيها الى خصائص القصة الفنية قبل ان يحددها الادباء والكتاب المعاصرون فتراه في الأبيات الاولى (١ - ١٨) يعرض مقدمة القصة ويحدد فيها علاقته « بنعم » ونسبها ومكانتها الاجتماعية وصلته بها وحبها له ، فإذا ما انتهى من ذلك عرض لسياق الموضوع وحاول وصف زيارته لها في موضع « ذي دوران » وحدد في هذا السياق

« الغرض تاماً » (١٩ – ٢١) وهنا وعندما يقرأ الناقد كل هذا ويصل الى درجة لا يقوى فيها ان يفكر بعد ذلك طويلًا ليرى ما جرى لعمر في هـــذه الزيارة ، أصرفته « نعم » عنها في شيء من رفق ، ام ارتضت به زائراً كريماً = في هـذا البيت يعرض عمر لعقدة القصيدة ويحدد موقف « نعم » منه :

فَقَالَتْ وقد لانت وَأفْرَخَ روعها
كَلاكَ بحفظٍ ربـك المتــكبّرِ

وفي هذا البيت يتبدل مجرى الحوادث تبدلاً تاماً في لقائها اذ ترضى عنه ، وتقبله زائراً عليها بعد ان اغتاظت من مفاجأته لها واستهجنت قدومه الغريب في ظلام الليل الدامس . ثم بعد ان يوضح عمر جميع المراحل التي قضاها مـع نعم ، ويصف تلك الليلة الجميلة التي استمع فيها الى حديثها ، مطمئنا الى تلك الاشارات الفنية ، والألفاظ القرشية التي اعتادت سيدات العصر استخدامها في تعابيرهن (١) ، واتى على ذلك في قصيدته ووصف شقيقتيها وهما تودعانه فعرض خاتمة القصيدة القصصية في بيته الاخير منهـا والذي يتعلق بموضوعنا :

هَنِيئــاً لِأَهْلِ العَامِرِيّةِ نَشْرهَا
اللّذيذَ وَرَيّاهـا الّذِي أتـذكّرُ

ونحن ما كان بودنا ان نعرض لكل هذا لو توصل النقـاد الى

---

(١) ومن هذه الألفاظ الكلمات التالية : اريتك اذهنا عليك ، الم تخف ، وقيت ، علي امير ، كلاك بحفظ ربك

تحديد فن عمر من بين فنون الشعراء الذين سبقوه ، وهل كان عمر مقلداً في فنه « الفن القصصي في الادب العربي . » ام مبتكرا فالنقاد المعاصرون يختلفون في ذلك ، فالاستاذ بطرس البستاني في كتابه « ادباء العرب » لا يصل الى تحديد موفق في هذا الموضوع فتارة يقول مقلداً وتارة يقول ان عمر قد احتكر هذا الفن احتكاراً ، وانا لست افهم كيف انه مقلد وكيف انه قد احتكره احتكاراً ويجدر بنا قبل ان نخوض في صلب الموضوع ان نحدد موقف عمر من الشعراء الآخرين ، وهذه العلاقة قائمة بين شاعرنا من جهة وبين امريء القيس من جهة اخرى ، ذلك ان الرواة قد ذكروا ابياتاً في الاسلوب ذاته للملك الضليل ، وعندما لم يوفقوا الى نقد هذه الابيات وتحديد صلتها بالشاعر ، ولما لم يوفقوا الى ذلك واعتبروها لامريء القيس ، وجاء من بعده عمر وعرض رائيته وقصائد اخرى بالاسلوب ذاته ، اختلف النقاد المعاصرون الذين عنوا بدراسة الادب القديم ، في ذلك ، ومنهم كما قدمت الاستاذ بطرس البستاني حيث يقول في كتابه (٢) « ان عمر ابن ابي ربيعة زعيم الغزل الحضري وقد استحق صاحبنا هذا اللقب لعدة اسباب منها : انه اول شاعر قصر همه على الغزل دون غيره ونظم فيه القصائد الطوال ، واول شاعر اجاد في تصوير عواطف المرأة واختلاجات نفسها ، واختلاف حركاتها . » ثم تراه بعد ذلك يعرض للموضوع نفسه في كتابه(٢) فيقول « ثم ينتقل الى ذكر زيارته لها ، فيزيد نفسه تشهيراً على

(١) ادباء العرب في الجاهلية وصدر الاسلام ص ٢٨٩ الطبعة الرابعة
(٢) ص ٢٩٤ (المصدر نفسه)

تشهير ويروي لنا خبر هذه الليلة باسلوب قصصي شائق اختص به ابن ابي ربيعة ففاق أقرانه . » وفي موضع آخر يعرض للبحث نفسه فيقول في كتابه (١) « ان خاصة ابن ابي ربيعة محصورة في غزله بل في قصصه الغرامي الذي يريك في الادب العربي شيئاً جديداً وفي ذلك الحوار الذي يدور بين النساء من ناحية وبينه وبينهن من ناحية اخرى ، حتى ليخيل اليك انك تقرأ في شعره قطعة تمثيلية تكاد تكون تامة ، ومثل هـذا الاسلوب القصصي كثير في شعر عمر وعليه قامت شهرته . »

ثم يقول : « ولا بد انك تذكرت امرأ القيس ، وانت تقرأ رائية فتى قريش لأن الصلة قوية بين الشاعرين ، فكلاهما يتعهر في غزله ، وكلاهما يتجشم الاخطار للوصول الى من يحب ، وكلاهما .. » إلى ان يقول : « على ان هذه الصلة بين الشاعرين لا تجيز لنا القول ان عمر جاء مقلداً امير الشعراء في قصصه الغرامي ، فانما هو جاء مجدّدا ومحسناً له ، والقصص في غزل الشاعر القرشي اتم منه في غزل امرىء القيس ، فهو صفة لازمة لشعر ابن ابي ربيعة ، وليس بصفة لازمة لشعر امرىء القيس ، ومن العدل ان نسمي هـذا أسلوب ابن ابي ربيعة لأنه احتكره ، احتكاراً وان يكن شاعر كندة قد سبقه اليه . » وكان الاستاذ المؤلف قد عرض لهذا البحث في كتابه عندما عرض لدراسة امرىء القيس حيث قال (٢) « انه اول من ادخل في الشعر الغزل الرقيق والقصص الغرامي . »

---

(١) نفس الكتاب صفحة ٢٩٨

(٢) ص ٢٥

ثم إذا تعرّض أثناء دراسة عمر ابن ابي ربيعة لهذا الاسلوب الذي شاع في ادبه ذهب الى انه قد وسع نطاقه القصصي وادخل فيه الحوار التمثيلي اللذيذ، ثم اذا ما امعن في دراسة رائية الشاعر بعين الناقد البصير الذي يدرك الجمال الفني في هذا الشعر الجميل السلس تراجع عن رأيه الاول ، واعلن رأياً جديداً في ذلك . اذ يقول عن زيارة عمر لنعماه انه عرضها : « باسلوب قصصي شائق اختص به ابن ابي ربيعة ففاق اقرانه . » ثم يؤكد ذلك ايضاً فيقول كما قدمت : « ان خاصة ابن ابي ربيعة محصورة في غزله بل في قصصه الغرامي الذي يريك في الادب العربي شيئاً جـــديداً ، وفي ذلك الحوار اللذيذ الذي يدور بين النساء من ناحية ، وبينه وبينهن من ناحية اخرى . » وتراه إذ يعلن رأيه الجديد يتراجع ايضاً فيؤكد رأيه السابق » وهنا تبدو المتناقضات جميعاً ذلك انه يقول : « على ان هذه الصلة بين الشاعرين لا تجيز لنا القول ان عمر جاء مقلداً امير الشعراء في قصصه الغرامي فانما هو جاء مجدداً ومحسناً له فهو صفة لازمة لشعر ابن ابي ربيعة، وليس بصفة لازمة لشعر امرىء القيس ، ومن العدل ان نسمي هذا الفن اسلوب ابن ابي ربيعة لأنه احتكره احتكاراً وان يكن شاعر كندة قد سبقه اليه »

قلت لا افهم هذه المتناقضات ، ولعل الاستاذ بطرس البستاني لم يعرض لدرس الادب العربي القديم جملة واحدة ليضع الخطوط الكبرى له ، انما عرض لدراسة كل شاعر بمفرده ، لذلك لم يتكون عنده رأي صريح في ذلك ومن الخطأ ان نقع في هذه الالتباسات ، وانا اود ان افهم : اما ان يكون امرؤ القيس واضع نواة هــذا

الشعر ، كما وضع زهير نواة الشعر الحكمي في الادب العربي ، ووضع الأعشى نواة شعر الخمرة فيه ايضا ، وان ابن ابي ربيعة اخذه عنه وقلده فيه ، كما اخذ كثير من الشعراء عن زهير والأعشى وقلدوهما في فنيهما ، ـ ومعنى التقليد هنا انه اقتبسه وهضمه وحسنه ـ ولا يجوز في هذه الحال اعتبار عمر صاحب هذا الفن ؛ أو ان هذه الابيات التي وجدت في شعر امرىء القيس قد دست عليه ، وأضافها الرواة . أما ان نقول : « إن هذا الاسلوب صفة ملازمة لشعر عمر ابن ابي ربيعة ، وليست ملازمة لشعر امرىء القيس »(١) لأن الادب الجاهلي على الاطلاق لم يكن تاماً في موضوع من المواضيع ، ولم تلازمه صفة من الصفات ، فمما لا يتفق مع آراء الاستاذ البستاني التي ذهب اليها حين تعرض لهذه الظاهرة في شعر امرىء القيس ؛ وعلى هذا نقرر في شيء من جزم ان هذا الاسلوب هو اسلوب عمر ابتكره ابتكاراً ولم يقلد به احداً ، أوجده وأضاف عليه من مرحه وخصائصه فغدا خاصاً به ، مميزاً لشعره عن سائر الشعر العربي على الاطلاق ، وان الابيات التي نسبها الرواة لامرىء القيس ليست له ، وانما دست عليه ، دسها شاعرنا عمر . اما العامل الذي دفع شاعرنا الى ان يدس هذه الابيات على الملك الضليل هي رغبته في التأكد من شاعريته ذلك ان شعر عمر ابن ابي ربيعة قد تطور حتى وصل الى هـذه الدرجة من الكمال ، ويجب ان لا يغرب عن بالنا ونحن نقرر ذلك قول جرير « ما زال هذا القرشي يهذي حتى قال الشعر . » وليس هـذا الامر غريب الوقوع ، فإن الرواة يذكرون ان الجاحظ نفسه قبل ان يعلن مؤلفاته وضع كتباً نسبها الى عبدالله

(١) بطرس البستاني : أدباء العرب في الجاهلية ... الطبعة الرابعة ص ٣٠٥

ابن المقفع ولما اطمأن الى نتائج هذه المؤلفات في الاوساط الادبية اظهر مؤلفاته، فليس ثمة من غرابة كما قدمت، اذا فعل عمر ابن ابي ربيعة ذلك، وانا لست ارضى حكماً لعمر أعدل من هذا الحكم. ذلك اننا لو ذهبنا مذهب بعض النقاد في تحديد هذا الفن لوقعنا بمشكلة اخرى هي ان عمر لم يكن مقلداً لامرىء القيس في اسلوبه فحسب، انما كان سارقاً لمعنى ابياته جميعاً، ومن الصعب ان نقرر هنا ان المعنى الذي تدور عليه بعض تلك الابيات التي جاءت في رائية عمر والذي هو عين المعنى الذي جاء في شعر امريء القيس، انما هو مجرد صدفة، لأن ذلك قد يرد في بيت من الأبيات ولا يجوز ان يكون في روح القصيدة ومغزاها ونهايتها، فالأقرب إلى منطق البحث ان نقرر، ان عمر هو الذي دس على امريء القيس تلك الابيات الغزلية الرقيقة، واستخدم نفس المعنى الاول باعتبار انه صاحب هذه الابيات، فحور فيها وسبكها في هذا القالب الجديد، وتمم بها رائيته. ومهما يكن من امر فرائية عمر قصيدة قصصية تامة، جامعة « لخصائص القصة الفنية » وان اسلوب هذه القصيدة القصصية هو اسلوب عمر ابن ابي ربيعة، اوجده كما قدمت في الادب العربي.

ولنرجع الآن الى عمر فلقد اطمأن الى اهل العامرية لنشرها اللذيذ، واكد انه سيذكر رياها، ولكن عمر لا يلبث ان يتناسى هذه الذكرى، كما تناسى سواها من قبل وبعل نعماه، وبعل تلك الايام الجميلة الخالدة التي عاشها في كنفها، وبالقرب منها منعما بولائها، وحبها اياه، او قل ان شأن عمر مع « نعماه » كان كشأنه مع صديقاتها جميعاً، فلقد قدر له ان يتناساها كما

تناسى سواها من قبل ، ويتصل « بالثريا » هذه التي ملكت عليه قلبه حيناً ووعيه وتفكيره حيناً آخر ، وبينا شاعرنا في خواطره ورؤاه ، تزور مكة في سنة من سني الحج « رملة بنت عبد الله بن خلف الخزاعية . » فيعجب بها عمر ، شأنه في كل موسم ، فيتصل بها ويصفها ، وتبلغ ابياته فيها « الثريا » عن طريق « ام نوفل » فتغضب هذه وتهجر عمر ، ويتجاهل شاعرنا هذا الجفاء حيناً علهِ يقوى على ان يثني من عنانها فتأتيه صاغرة مسترحمة ، ولكن « الثريا » ابت ان تأتيه ، واحس عمر بهذا الامر ، واحس به في نفسه وشعوره ، فراح يعلن امره وانه يحبها حباً شديداً ، وان شوقه اليها ، كشوق الظمآن الى الماء ، وان الشوق قد برح به ، حتى اصبح يسأل عن رسول يأتيها فيستسمح له منها ، وان « ام نوفل » قد اخطأت حينما بلغها الامر ، ثم تتراءى له جميلة ، فاتنة ، وقد ابرزوها مثل المهاة تتهادى بين خمس من صويحباتها فغدت اجملهن على الاطلاق ، وابدعهن وقد طفا على وجهها ماء الشباب ، ثم بعد ذلك كله جاء من يسأل عمر : « أتحبها » ، وهنا يحار شاعرنا كيف يجيب ، وكيف يقسم ليؤمنوا بصدق حبه ، وبصدق اخلاصه لها ، فيقسم بعدد النجوم والتراب انه يهواها ، وانه خلق لها ، وانه يسعى لولائها ومرضاتها ، وتراه يعجب من امرهم معه في هذا الامر الذي اوقف حياته له :

قَالَ لِي صَاحِبي لِيَعْلَمَ مَا بِي
أَتُحِبُّ ٱلْقَتُولَ أُخْتَ ٱلرَّبَابِ

قُلتُ وَجْدِي بِهَا كَوَجْدِكَ بِالْعَذْبِ
إِذَا مَا مُنِعْتَ طَعْمَ ٱلشَّرَابِ
مَنْ رَسُولِي إِلَى ٱلثُّرَيَّا بِأَنِّي
ضِقْتُ ذَرْعًا بِهَجْرِهَا وَٱلْكِتَابِ
أَزْهَقَتْ أُمُّ نَوْفَلٍ إِذْ دَعَتْهَا
مُهْجَتِي مَا لِقَاتِلِي مِنْ مَتَابِ
حِينَ قَالَتْ لَهَا : أَجِيبِي ، فَقَالَتْ :
مَنْ دَعَانِي ؟ قَالَتْ : أَبُو ٱلْخَطَّابِ
أَبْرَزُوهَا مِثْلَ ٱلْمَهَاةِ تَهَادَى ،
بَيْنَ خَمْسٍ كَوَاعِبٍ أَتْرَابِ
وَهِيَ مَكْنُونَةٌ تَحَيَّرَ مِنْهَا
فِي أَدِيمِ ٱلْخَدَّيْنِ مَاءُ ٱلشَّبَابِ
دُمْيَةٌ عِنْدَ رَاهِبٍ ذِي ٱجْتِهَادِ
صَوَّرُوهَا فِي جَانِبِ ٱلْمِحْرَابِ

ثُمَّ قَالُوا تُحِبُّهَا ؟ قُلْتُ بَهْراً ،
عَدَدَ ٱلنَّجْمِ وَٱلْحَصَى وَٱلتُّرابِ

ويبلغ هذا الدعاء الحار ، ابن ابي عتيق ، ويلمس فية شعور عمر نحو « ثرياه » ويتحسس منه انسحاق قلبه وانقباض نفسه ،وما يخالج احساسه من حب نحوها ، وشوق للقياها ، وتبلغه هذه الصور الحسية المرئية التي تتراءى لصديقه عمر ، وتتراءى له في اخراج منسق بديع ،هذبها السبك واضاف عليها فن عمر روعة ،فغدت عذبة سحرية أخاذة ، يطمئن ابن ابي عتيق الى هذه الأبيات ويدرك انه المعني في دعاء عمر وندائه :

مَنْ رَسُولِي إِلى ٱلثُّرَيَّا بِأَنِّي
ضِقْتُ ذَرْعاً بِهَجْرِهَا وَٱلْكِتَابِ

ويتعاظم هذا القسم « بكتاب الله الكريم » في نفس ابن ابي عتيق فيغادر المدينة مع خادمه ، ويحط رحاله في مكة عند عمر ، ثم يصحبه الى « الثريا » في الطائف فينزلا هناك في بيتها ويستعطفها ابن ابي عتيق ، ويسترحمها ويطلب اليها ان تتغاضى عن خطيئات شاعرنا ، وانه من الشعراء الذين يقولون ما لا يفعلون فترضى « الثريا » عن شاعرها وتصله اجمل الوصال وتخلص له احسن الاخلاص وتعود فتصدقه حبها ، وتصدقه في ولاءها ، وهكذا يعود عمر الى « ثرياه » ويعود اليها حيناً بعد ما كلف ابن عتيق مشقة السفر ، وعناء السؤال ، وبعد ان مهد لهذا

الوصال الذي كان يظنه وصال الابد بما أوتي من سعة ، ووجاهة ، ومكانة ، ولكن عمر سرعان ما يتزوج « كلثم بنت سعد » ويدع « الثريا » ويهجر مكة ، وينطلق فجأة الى اليمن ، ليتناسى كل هذه الذكريات الخالدة التي بعثته شاعراً ، مبدعاً ، وفناناً مصوراً ويبقى هناك ، ويرضى عن زواجه حينا ، ويطمئن اليه ، ثم لا يلبث ان يستعيد من ذكرياته ويحن الى « ثرياه » من جديد وقد تزوجت سهيل بن عبد العزيز بن مروان ، ويتصورها عمر باكية ، وقد عز عليها فراقه وزواجه ، وزاد في المها ان موسم الحج قد اقبل وشاعرها بعيد عن البيت العتيق ، غائب عن عرفات ، وان اولاء الحسناوات الجميلات اللائي قصدن مكة سيرجعن آسفات حزينات دون ان يحملن معهن ذكرى ، او يسترجعن في طريق عودتهن بيتاً لشاعر الحب والجمال ، يتعزين به ، ويطربن له ، وانها خيالات تراود نفس الشاعر ، وتدفعه ان يعود الى مكة ، وان يعود الى « الثريا » متذرعاً بدموعها مستجيباً لذاك النداء العميق الذي يصوره على لسانها :

وَقَوْلُهَا لِلثُّرَيَّا وهِيَ بَاكِيَةٌ
وَالدَّمْعُ عَلَى الخَدَّيْنِ ذُو سَنَنِ
بِاللهِ قُولِي لَهُ فِي غَيْرِ مَعْتَبَةٍ
مَاذَا أَرَدْتَ بِطُولِ المُكْثِ فِي اليَمَنِ

إِنْ كُنْتَ حَاوَلْتَ دُنْيَا أَوْظَفِرْتَ بِهَا
فَمَا أَخَذْتَ بِتَرْكِ ٱلْحَجِّ مِنْ ثَمَنِ

انها ذكريات شاعر ، يعيش بها ، ويعيش لها كلما عاودته اطياف من الماضي القريب او البعيد ، وانه الحنين الى الثريا ، وشوقه لها ، وهنا يسأل الشاعر نفسه كيف يقوى ان يعود اليها وان يستجيب لهذا النداء العميق ، الذي يلهب نفسه ، ويذكي روحه ، فليتناسَ اذن الذكريات كما تناسى سواها من قبل ، وليتناسَ « ثرياه » ويحاول وصلا جديدا اذا قدر له ـ وليتغنَ بزينب بنت موسى الجمحية ابنة عم ابن ابي عتيق ، صديق عمر ، وليصفها وصفاً جميلاً ، وليشبب بها ، وليذكر علاقته معها ، واخلاصها له ، وحنينها اليه ، وأنها اجمل النساء على الاطلاق ، وليستعد حديث ابن ابي عتيق عنها ووصفه لها ، وانها ذات حسن وأدب ، وانها مزيج من الجمال واللطف :

يَا خَلِيلَيَّ مِنْ ملامٍ دَعَاني
وأَلِمَّا ٱلْغَدَاةَ بِالأُظْعَانِ
لا تَلُومَا فِي أَهْلِ زَيْنَبَ إِنَّ ٱلْـ
قَلْبَ رَهْنٌ بِآلِ زَيْنَبَ عَانِ
وِهِيَ أَهْلُ ٱلصَّفَاء وَٱلْوِدِّ مِنِّي
وَإِلَيْهَا الهَوى فَلَا تَعْذُلاني

لَمْ تَدَعْ للنِّسَاءِ عِنْـدي نَصِيباً
غَيرَ مَا قُلْتُ مَازِحـاً بِلِسَاني
إنَّ قَلْبِي بَعْدَ ٱلَّذي نَالَ مِنْهَا
كَالْمُعَنَّى عَنْ سَائِرِ ٱلنِّسْوَانِ

ويبلغ هذا الشعر ابن ابي عتيق ، ويبلغه فيه حب عمر ، وشوقه الى زينب ابنة عمه ، فيحار كيف يرضى عن عمر صديقه ان يشبب بزينب ، وان يصفها هذا الوصف ، وان يعلن ذلك في اوساط الحجاز فيتناقله الرواة والمغنون ، ويشيع خبرها كما شاع من قبل خبر سواها ، فيتصل بشاعرنا ، ويروح يلومه على اعلانه امرها ، فيعتذر عمر ، ويسأل صاحبه ان لا يلومه في ذلك وهو قد جمّلها في عينيه وحبّبها الى قلبه ، ووصف له من محاسنها واخلاقها ما جعل شاعرنا يهواها ، وترى عمر ينعت صديقه بالشيطان ، اذانه بعدان وصفها له وحبّبها اليه راح يلومـــه على هذا الحب ، ويعتب عليه ان هو شبب بابنة عمه :

لاَ تَلُمْنِي عَتِيقُ حَسْبِي ٱلَّذي بِي
إنَّ بِي يَا عَتِيقُ مَا قَدْ كَفَانِي
لا تَلُمْنِي وأَنْتَ زَيَّنْتَهَا لِي
أَنْتَ مِثْلُ ٱلشَّيْطَانِ لِلإِنْسَانِ

ويتغاضى ابن ابي عتيق عن خطيئة الشاعر ، ويتناساها حبا في الابقاء على صداقته ، وحرصا منه على مودته ، لانه لا يرى خيرا اذا قدر لهذه الشاعرية الفياضة الخصبة ان تنطفيء ، وهو الذي سعى بالامس القريب للوصال بين عمر و الثريا ، فكيف تريد منه اليوم ان يقطع صلاته بعمر من اجل زينب ابنة عمه ، و كأن عمر احسّ من صديقه حسن معاملته له ، ولطف مأخذه عليه ، وجميل كرمه ، فاحب ان يعلن مذهبه في الحب ، لينفي عن خاطر ابن ابي عتيق ماساوره وليؤكد له حسن علاقته بزينب :

إِنِّي ٱمْرُؤٌ مُولَعٌ بِٱلْحُسْنِ أَتْبَعُهُ

لَاحَظَّ لِي فِيهِ إِلَّا لَذَّةُ ٱلنَّظَرِ

واي حسن هذا الحسن الذي احبه عمر ، واي جمال هو هذا الجمال الذي افتن به واوقف حياته له ، انه الحسن كابدع ما يكون ، وانه الجمال كاجمل ما يكون ، وانه كذلك هذه الحياة التي قضاها عمر ، والتي اوقف لها جاهه وشبابه وثروته ، والتي لم ينعم بها على قوله الا ليمد في هذه الوجوه المليحة المشرقة ناظريه وقد اثمرت هذا الشعر ، وتركت في الادب العربي ، هذا التراث الغزلي الذي يعد اكبر مصدر من مصادر تأريخ العصر الأموي الاول كما قدمت ، فكيف به اذا قدر له ان ينعم بهذا الجمال ويتحسس من الحسان اللواتي اعجب بهن ، الرحمة ، والعطف ،

والحنان ، وان يشعر بالقرب منهن بهذا السحر الأخاذ ، والحب الآسر ، ولا اشك في ان عمر قد نعم بشيء من هذا ، واطمأن الى هذه الرحمة والعطف والحنان ، ورضي في حياته عن علاقته ببعض الحسان ، ولكن نود ان نستخلص من قوله في بيته الذي قدمناه آنفاً ومن قوله :

فَبِتُّ قَرِيرَ ٱلْعَيْنِ أُعْطِيتُ حَاجَتِي
أُقَبِّلُ فَاهَـا فِي ٱلْخَلَاءِ فَأُكْثِرُ

قلت أريد ان نستخلص ، موقف عمر من هؤلاء الحسناوات جميعاً ، وموقف النقاد منه في هذه العلاقات ، فالنقاد ينقسمون في تحديد هذا الموضوع الى قسمين ، قسم يأخذ بالرواية الاولى وهي ان عمر ابن ابي ربيعة أقسم انه ما اقدم على حرام ، وقسم آخر يأخذ بالرواية الثانية « انه فعل كل ما قال » ، ولكن نحن هنا نود ان نحتاط فلا نأخذ برأي الفريق الاول ، كما اننا لا نأخذ ايضاً برأي الفريق الثاني ، بل نقف بين الرأيين ، فنشير الى ان موقف شاعرنا من اخت عبد الملك وبنته ومن زوجة سهيل بن عبد العزيز بن مروان ، ومن عائشة بنت طلحة ، ومن سكينة بنت الحسين . ومن لبانة بنت عبد الله بن عباس ومن زينب بنت موسى الجمحية ابنة عم ابن ابي عتيق ، ومن هند بنت الحارث المرّي ، ومن غيرهن من شريفات الحجاز والعراق والشام ، انما كان موقفاً شريفاً عفيفاً ، كما اننا لا نظن ان عمر وقف هذا الموقف طوال حياته مع

جميع الحسان اللائي عرفهن وتغزل بهن لأنه من العسير ، ومن العسير جداً ان يقف عمر هذا الموقف معهن ، وهو قد قضى حياته في مغازلة هذه الطبقة الواعية المتفهمة للحياة المترفة في الحجاز .

ويظل عمر شاعرنا يتغنى بهذا اللحن الفاتن الآسر ، ويتغنى به ما قدر لهذا الشباب الغض النضر ان يتغنى ، حتى اذا قدر لهذا اللحن الجميل ان يخفت ، وقد مل عمر ترديده ، ومل غناءه ، وقد آلمه الشيب يعلو لمته والوهن يدب في عروقه ، وآلمته الحسان المفتونات به المعجبات فيه ، يبتعدن عنه ويتجافينه ، وقد كن يسعين اليه ، متوددات له ، مقبلات عليه ؛ فراح يذكر ماضيه ، وراح يذكر ايامه ، وما في ايامه من حب ، وما في الحب من سعادة ، وكيف ان الرباب عتبت عليه لأنه يشهر باسمها ، ويعلن في الحجاز حبها له ، وهي قد خافت من الوشاة وسعت من اجل ذلك في الابتعاد عن عمر حبا منها على شرف اسمها ، ومحافظة على مكانتها ، وكيف انه تغلب عليها وفرض عليها حبه فرضا فجاءته من غير عنف راضية غير كارهة ومقبلة غير مولية .

كَتَبَتْ تَعْتِبُ الربابُ وَقالَت
قَدْ أتانا مَا قُلْتَ فِي الأشْعارِ
سَادِراً عَامِداً تُشَهِّرُ بِاسْمِي
كَيْ يَبُوحَ الوُشاةُ بالأسْرارِ

فَاعْتَزِلْنَا فَلَنْ نُجَدِّدَ وَصْلاً
مَا أَضَاءَتْ نُجُومُ لَيْلٍ لِسَارِ
قُلْتُ: لَا تَصْرِمِي لِتَكْثِيرِ واشٍ
كاذبٍ في الحَدِيثِ والأخبارِ
لَمَ نُبُحْ عِنْدَهُ بِسِرٍّ ولكِنْ
كَذِبٌ مَا أَتَاكِ والْجَبَّارِ
لا تُطِيعِي فإِنَّنِي لَمْ أُطِعْهُ
أَنْتِ أَهْوَى الأحبابِ والأجْوَارِ

يذكر عمر كل ذلك ، من ماضيه ، وشبابه ، وحبه فيرى ان البون شاسع ، والفرق عظيم بين امسه ويومه ، ويدري انه الشباب قد ذبل ، وان النضرة قد تلاشت ، وان الحياة قد انتهت او كادت ، مع انه هو عمر ابن ابي ربيعة صاحب الجاه العريض ، والثروة الطائلة ، والمكانة المرموقة ، ويدري عمر ان كل هذا كان متمما للشباب وللشعر ، فينشد دون يأس ، ويبكي دون حزن ، ويسترجع ماضيه دون ألم ويتعزى بعد ذلك :

رَأَيْنَ الْغَوَانِي الشيبَ لَاحَ بِعَارِضِي
فَأَعْرَضْنَ عَنِّي بِالْخُدُودِ النَّوَاضِرِ

وكُنَّ إذا أَبصَرْنَني أَوْ سَمِعْنَني
سَعَيْنَ فرَقَّعْنَ الْكُوى بِالْمحَاجِرِ
فَإِنِّي مِنْ قَوْمٍ كَرِيمٍ نِجَارُهُمْ
لِأَقْدَامِهِمْ صِيغَتْ رُؤُوسُ الْمَنابِرِ

حنانيك يا عمر ، كيف تمل النشيد ، وتمل الغناء وانت اول من انشد في الحب العربي ، وأعتقد انك آخر من أنشد فيه ، فلقد وجد هذا الشعر مرة يوم كنت انت ، وتلاشى من بعــدك فلن يكون .

وهكذا يقبــع عمر فى داره يمد عينيــه الى الأمس القريب البعيد وقد تغشتهاصور عذاب الى نفسه ، عزيزة على قلبه ، يرافقها في هذا العرض السريع البطيء لحن عمر ، وغناؤه ، لحنه البديع البديع وغناؤه العذب الرقيق :

إذاأَنْتَ لَمْ تَعْشَقْ وَلَمْ تَدْرِمَا الْهَوى
فكُنْ حَجَراً مِنْ يَابِسِ الْصَخْرِ جَلْمَدا

ولا يلبث عمر ابن ابي ربيعة ، بعد ذلك ان يذوي كما تذوي الزهرة النضرة ، التي افعمت الكون اريجــاً وعبقاً ، وسحرت القلوب حيناً ودهراً ، وملأت الارض بهجة واشراقاً ، ويذوي عمر ليحيا ابـد الدهر شاعر الحب العربي ، ولحنه الفاتن الآسر ، وغناءه الجميل الجميل .

دراسة حول غزل عمر ابن ابي ربيعة :

وهل هناك ثمة صلات بين غزله وشعر امريء القيس كما يقول بعض النقاد . ؟



بعد ان عرضنا صورة واضحة للغزل العربي في العصر الاموي، ودرسنا علمين من اعلامه هما جميل بن معمر، صاحب بثينة ،استاذ الغزل البدوي ، وعمر ابن ابي ربيعة شاعر الحب العربي ، واستاذ الغزل الحضري ، ارى من الضروري اتماماً للبحث ان نقول كلمة في غزل عمر ، وفي شعر الشعراء الجاهليين الذين طرقوا موضوع الحب في الادب امثال امريء القيس ، وطرفة ، وزهير ، وعنترة، والنابغة ، والمنخل اليشكري ، لتأتي دراستنا لعمر تامة ، محددة لهذا الفن في الادب .

قلت الذين طرقوا موضوع الحب ، ولم اقل موضوع الغزل، لأنني اود ان افرق بين الحب والغزل في الادب ، فالحب من خصائص الناس جميعاً والغزل الذي هو موضوع الحب في الأدب، هو من خصائص هذه الطبقة التي قدر لها ان تضع هذه الاناشيد السحرية ، وتلك الادعية الخالدة ، امثال عمر وجميـل ، وقيس في

ادب الامة العربية ، وامثال غوته ولا مارتين ودي موسه وغيرهم في آداب الأمم الاخرى .

وعلى ضوء الحب والغزل نريد ان ندرس عمر وان نقارن بين شعره ، وشعر الجاهليين . ونحن في عرض البحث نقرر اولا ، ان الجاهليين احبوا كسائر الناس الذين يحبون وان ما انشدوه من شعر ، وما وضعوه من خبر كان في اكثره تذكاريا ، مادي الصور ، ساذج الاخراج ، بعيداً عن تصوير الشعور ، والشوق ، والحنين ، وانهم لم يستطيعوا ان يصفوا غير الأشياء المنظورة في محيطهم ، فهم لم يوفقوا الى السمو بهذا الحب الى دنيا الشعور والانطلاق ، بيد ان عمر تغزل واحب ، وسما بهذا الغزل فجعله فنا مستقلا عن سائر الفنون ، ووضع له اصوله وقواعده ، وامتاز ايضا باسلوبه القصصي (١) الذي ابتكره والذي لم يسبقه اليه شاعر جاهلي ، والذي لم يجاره فيه أحد ، والذي لم يع من قيثارة امرىء القيس نغما على خلاف ما رأى الاستاذ رئيف خوري (٢) في الحان عمر ، وما رأى الاستاذ بطرس البستاني (٣) في اسلوبه ، اذ جعلاه مقلدا في اللحن وفي الاسلوب لامرىء القيس وذهب الاستاذ خوري بعيداً فجعل عمر قد تتلمذ على كبير الجاهليين واعلن هذه التلمذة صراحة ودليله على ذلك الوزن والنغم والروح الشعرية في رائية عمر ،

(١) لم يخل الادب العربي من روح القصة كقصيدة الحطيئة في وصف الضيف العجوز . الا ان هذه القصائد ليس روح اسلوب عمر القصصي الذي حددناه .

(٢) كتاب وهل يخفي القمر صفحة ١٢٨ .

(٣) تقدم تحديد المراجع في دراسة عمر .

التي جاءت مطابقة لوزن ونغم وروح الشعر في معلقة الملك الضليل وليس ثمة من شك في ان هناك صلات قد تكون قوية بين رائية عمر ، ومعلقـــة امرىء القيس ، ولكن ترى هل تتلمذ عمر على الشاعر الجاهلي ، وهل وعى عمر نغما من قيثارته على حد قول الاستاذ خوري ، وهل جاء مقلدا للشاعر الجاهلي في اسلوبه القصصي على حد رأي الأستاذ البستاني ، وماهي علاقة هذه الصلات بين عمر وامريء القيس ، وما علاقة هذا الاسلوب القصصي في الشعر الغنائي ؟

هذا ما سنحاول ان ندرسه على ضوء البحث ، وان نحدده في هذا العرض ، وان نقيده في الادب فنبين ما وقع به النقـــاد من اخطاء لم يتعمدوها ، كما انهم لم يعملوا فيها النقد والدرس والتحليل لتستبين لهم الحقيقة ، وليقفوا على خصائص كلا الشاعرين .

فنحن نقر إذن ان هناك ثمة صلات بين الشاعرين : امرىء القيس وعمر ابن ابي ربيعة شاعر الحب العربي الذي انتزع هذا اللقب انتزاعا ، وعرف به ، لأنـــه اول من تغزل بالحب العربي ، وسما به الى تصوير الشعور ، والشوق ، وتصوير هذا الذي يحس به الناس من الادباء والشعراء فيغنونه الحاناً سحرية ، ويضعونه قصصا خالدة لها طابعها ولها شخصيتها ، ونحن الى جانب اقرارنا بهـذه الصلات بين الشاعرين نود كما اشرت ان نفرق بين الحب والغزل في الادب ، والفرق بين الوصف والغزل عظيم اكثر مما يتصور بعض النقاد ، فالمقارنة اذاً ستقوم بين الشاعرين ، ولكن ارى من الضروري واستكمالاً لعناصر الدرس ، ان نقارن بين ابن ابي ربيعة من جهة ، وبين الجاهليين اطلاقا من جهـــة اخرى ، لما بين الشعر

الجاهلي من صلات ، ولما يتفق عليه الجاهليون في قصائدهم من توطئة ، ومن وحدة التركيب ، وانتقاء الألفاظ وتعدد الاغراض فيها ، ومن تشابيه ساذجة ، ومن تصاوير ، وما يذهبون فيهـا على غرار امرىء القيس من وقوف على الاطلال وذكر الأحبة ووصف الليل والخيل والمطر ، والى ما هنالك ؛ وسبب آخر يحتم علينا ان نقيم هذه المقارنة بين الجاهليين من جهة وبين عمر من جهة اخرى ، وان لا تكون المقارنة فقط بين الشاعرين - لما قلدبه الجاهليون جميعا امرأ القيس ، وما اخذوا عنه من نهج ، وماتوكأوا عليه من اسلوب ، وصور واغراض حتى كان لشعرهم جميعاً ميزة خاصة عن سائر الشعر في الادب العربي - حتى اذا قدر لنا ان نجد في شعر هؤلاء من الغزل ومن تصوير الحب ما نسبه الرواة الى امرىء القيس وما لم يوفق النقاد الى تحديده في الادب ، اخـذنا برأي النقاد الذين يجعلون من امرىء القيس شاعراً آخر يتفق وعمر ابن ابي ربيعة في هذا الباب ، او يذهبون ابعد من ذلك فيجعلون ابن ابي ربيعة مقلداً لامرىء القيس في ألحانه وفي اسلوبه حتى اذا لم نجد عند هؤلاء ما نسبه الرواة الى امرىء القيس اخذنا بفكرتنا ووضعناها موضع التحديد لهذا الفن في الادب العربي . ونحن مع الرواة والنقاد الذين عنوا بدراسة الادب الجاهـلى بأن امرأ القيس هو شارع اسلوب الشعر الجاهلي ، وان الجاهليين عـلى الاطلاق نهجوا على منواله ، وساروا على سنته ، وانهم قلدوه في كل شيء حتى ان عنترة قال في مطلـع قصيدته الكبرى ، ان الشعراء لم يدعوا له باباً من ابواب الشعر إلا وطرقوه ، وقبل ان

ندرس شعر الجاهليين على ضوء شعر امرىء القيس وما وضعوه في الادب العربي ، نعرض لهـذا الشعر نفسه ، وندرس كبرى قصائد الشاعر ، ونستخلص منها اكثر الصور في هـذا الموضوع حظا وأوفرها مادة فلا نحظى بغير تلك « التوطئـة » التي سنها الشاعر للجاهليين اطلاقا ، هذه الأبيات التي اصبحت معروفة من الخاص والعام ، والتي يشير فيها الى وقفته عند دار ابنة عمه «بسقط اللوى(١) » « بين الدخول وحومل(٢) » وسوى تلك الذكريات التي يسترجعها وهو يبكي ويبكي حزينا آسفاً حتى ان دموعـه لغزارتها بلّت غمد سيفه ، وتلك الاوصاف التي يأتي عليها ، وارى ان نعرض هذه التوطئة كما اجمع الرواة عليهـا ، وان ندرسها بعيدين عن أي تأثير :

قِفَا نَبْكِ مِنْ ذِكْرَى حَبِيبٍ وَمَنْزِلِ
بِسِقْطِ اللِّوى بَيْنَ الدَّخُولِ فَحَوْمَلَ (٣)

فَتُوضِحَ فَالمِقْراةِ لم يَعْفُ رَسْمُهَا
لِمَا نَسَجَتْهَا مِنْ جَنُوبٍ وشَمْـأَلِ (٤)

---

(١) اسم موضع .
(٢) اسم موضعين.
(٣) سقط اللوى : منقطع الرمل . والدخول وحومل : موضعان
(٤) توضح والمقراة : موضعان : لم يعف : لم يمح

تَرى بَعَرَ الصِّيرَانِ في عَرَصَاتِها
وَقِيعَانِهَا كَأَنَّهُ حَبُّ فُلْفُلِ (١)

كَأَنِّي غَداةَ ٱلْبَيْنِ يَوْمَ تَحَمَّلُوا
لَدَى سَمُرَاتِ ٱلْحَيِّ نَاقِفُ حَنْظَلِ (٢)

وُقُوفاً بها صَحْبِي عَلَيَّ مَطِيَّهُمْ
يَقُولُونَ لا تَهلِكْ أَسًى وَتَجَمَّلِ (٣)

فَدَعْ عَنْكَ شَيْئاً قَدْ مَضَى لِسَبِيلِهِ
وَلـكِنْ عَلَى مَا غَالَكَ ٱلْيومَ أَقْبِلِ (٤)

وَقَفْتُ بِهَا حَتَّى إذا ما تَرَدَّدَتْ
عَمَايَةُ مَحْزُونٍ بِشَوْقٍ مُوَكَّلِ

وَإِنَّ شِفَائِي عَبْرَةٌ إِنْ سَفَحْتُهَا
وَهَلْ عِنْدَ رَسْمٍ دَارِسٍ مِنْ مُعَوَّلِ (٥)

---

(١) الصيران جمع صوار وهو القطيع من البقر والظباء . عرصات: ساحات قيعانها جمع قاع وهو المطمئن من الوادي

(٢) غداة البين : صبيحة الفراق . تحملوا : تفرقوا .

(٣) المطي : الأبل ، تجمل : تصبر

(٤) هذا البيت والذي بعده رواهما لامرىء القيس ابن ابي الخطاب القرشي

(٥) معول : معتمد استفهام انكاري .

كَدَأْبِكَ من أُمِّ الْحُوَيْرِثِ قَبْلَها
وجَارَتِهَا أُمِّ الرَّبَابِ بِمَأْسَلِ (١)

إذا قَامَتَا تَضَوَّعَ المِسْكُ مِنْهُمَا
نَسِيمَ الصَّبَا جَاءَتْ بِرَيَّا القَرَنْفُلِ (٢)

فَفَاضَتْ دُمُوعُ العَيْنِ مِنِّي صَبَابَةً
عَلَى النَّحْرِ حَتَّى بَلَّ دَمْعِي مِحْمَلِي (٣)

ألا رُبَّ يَوْمٍ لَكَ مِنْهُنَّ صَالِحٍ
ولا سِيَّمَا يَوْمٌ بِدَارَةِ جُلْجُلِ (٤)

وَيَوْمَ عَقَرْتُ لِلْعَذَارَى مَطِيَّتِي
فَيَا عَجَباً مِنْ رَحْلِهَا المُتَحَمَّلِ (٥)

وَيَا عَجَباً من حَلِّهَا بَعْدَ رَحْلِهَا
وَيَا عَجَباً لِلْجَازِرِ المُتَبَذِّلِ (٦)

(١) دأب : عادة . مأسل اسم ماء بعينه
(٢) تضوع : ضاع حتى تظن ان نسيم الصبا حملت اليك ريا القرنفل
(٣) الصبابة : رقة الشوق . المحمل حمائل السيف
(٤) دارة جلجل: اسم موضع
(٥) عقرت : نحرت .
(٦) يعجب من نفسه كيف اصبح جازراً متبذلا ، ويعجب من رحل ناقته .

فَظَلَّ ٱلْعَذارَى يَرْتَمِينَ بِلَحْمِهَا
وَشَحْمٍ كَهُدَّابِ ٱلدِّمَقْسِ ٱلْمُفَتَّلِ (١)

تُدارُ عَلَيْنـا بِالسَّدِيفِ صِحافُنَـا
ويُؤْتَى إِلَيْنَـــا بِالْعَبِيطِ ٱلْمُثَمَّلِ (٢)

وَيَوْمَ دَخَلْتُ ٱلْخِدْرَ خِدْرَ عُنَيْزَةٍ
فَقَالَتْ لَكَ ٱلْوَيْلاتُ إِنَّكَ مُرْجِلِي (٣)

تَقُولُ وَقَدْ مَـالَ ٱلْغَبِيطُ بِنَـا مَعًا
عَقَرْتَ بَعِيرِي يا ٱمْرَأَ ٱلْقَيْسِ فَٱنْزِلِ (٤)

فَقُلْتُ لَهَـا سِيرِي وَأَرْخِي زِمَـامَهُ
وَلا تُبْعِدِينِي عَنْ جَنَـاكِ ٱلْمُعَلَّلِ (٥)

---

(١) يرتمين يرمي بعضهن بعضا بلحمها وشحمها الأبيض المفتل كالحرير

(٢) السديف : شحم السنم . العبيط اللحم الطري المخلوط بالسويق .

(٣) مرجلي: امشي مترجلة.

(٤) الغبيط : الهودج

(٥) جناها :اقتطاف حمرة خديها بالقبل : المعلل : الذي علل بالطيب مرة بعد مرة

دَعِي ٱلْبَكْرَ لَا تَرْثِي لَهُ مِنْ رِدَافِنَا
وَهَاتِي أَذِيقِينَا جَنَاةَ القَرَنْفُلِ (١)

بِثَغْرٍ كَمِثْلِ ٱلْأُقْحُوانِ مُنَوَّرٍ
نَقِيِّ الثَّنَايَا أَشْنَبٍ غَيْرَ أَثْعَلِ (٢)

فَمِثْلُكِ حُبْلَى قَدْ طَرَقْتُ وَمُرْضِعٌ
فَأَلْهَيْتُهَا عَنْ ذِي تَمَائِمَ مُحْوِلِ (٣)

أَفَاطِمَ مَهْلًا بَعْضَ هَذَا التَّدَلُّلِ
وَإِنْ كُنْتِ قَدْ أَزْمَعْتِ صَرْمِي فَأَجْمِلِي (٤)

وَإِنْ كُنْتِ قَدْ سَاءَتْكِ مِنِّي خَلِيقَةٌ
فَسُلِّي ثِيَابِي مِنْ ثِيَابِكِ تَنْسَلِي (٥)

أَغَرَّكِ مِنِّي أَنَّ حُبَّكِ قَاتِلِي
وَأَنَّكِ مَهْمَا تَأْمُرِي ٱلْقَلْبَ يَفْعَلِ

---

(١) اذ يقينا جناة القرنفل : دعينا نذوق
(٢) اشنب : صافي الريق رقيقه . غير اثعل : لم تتراكب اسنانه
(٣) تمائم محول : طفل رضيع له حول .
(٤) فاطمة هي ابنة عبيد بن ثعلبة بن عامر على قول ابن الكلبي
(٥) ساءتك : آذتك . تنسل: تخرج وتنصرف .

وَأَنَّكِ قَسَّمْتِ ٱلفؤَادَ فَنِصْفُهُ
قَتِيلٌ وَنِصْفٌ فِي حَدِيدٍ مُكَبَّلِ (١)

وَمَا ذَرَفَتْ عَيْنَاكِ إِلَّا لِتَضْرِبِي
بِسَهْمَيْكِ فِي أَعْشَارِ قَلْبٍ مُقَتَّلِ (٢) .

وَبَيْضَةِ خِدْرٍ لَا يُرَامُ خِبَاؤُهَا
تَمَتَّعْتُ مِنْ لَهْوٍ بِهَا غَيْرَ مُعْجَلِ

تَجَاوَزْتُ أَحْرَاساً إِلَيْهَا وَمَعْشَرًا
عَلَيَّ حِرَاصًا لَوْ يُسِرُّونَ مَقْتَلِي

إِذَا مَا ٱلثُّرَيَّا فِي السَّمَاءِ تَعَرَّضَتْ
تَعَرُّضَ أَثْنَاءِ الْوِشَاحِ الْمُفَصَّلِ

فَجِئْتُ وَقَدْ نَضَّتْ لِنَوْمٍ ثِيَابَهَا
لَدَى السِّتْرِ إِلَّا لِبْسَةَ الْمُتَفَضِّلِ (٣)

---

(١) ونصف في حديد هو النصف الواقع في اشراك حبها
(٢) ذرفت : دمعت . بسهميك: يريد بهما عينيها . اعشار القلب :اجزاؤه .
(٣) نضت ثوبها : خلعته عند النوم لبسة المتفضل: الا ما يلبس وقت النوم من قميص .

فَقَالَتْ يَمِينَ ٱللهِ مَا لَكَ حِيلَةٌ
وَمَا إِنْ أَرَى عَنْكَ ٱلْغَوَايَةَ تَنْجَلِي (١)

خَرَجْتُ بِهَا أَمْشِي تَجُرُّ وَرَاءَنَا
عَلَى أَثَرَيْنَا ذَيْلَ مِرْطٍ مُرَحَّلِ (٢)

فَلَمَّا أَجَزْنَا سَاحَةَ الْحَيِّ وَانْتَحَى
بِنَا بَطْنَ خَبْتٍ ذِي قِفَافٍ عَقَنْقَلِ (٣)

هَصَرْتُ بِفَوْدَيْ رَأْسِهَا فَتَمَايَلَتْ
عَلَيَّ هَضِيمَ الْكَشْحِ رَيَّا الْمُخَلْخَلِ (٤)

إِذَا الْتَفَتَتْ نَحْوِي تَضَوَّعَ رِيحُهَا
نَسِيمَ الصَّبَا جَاءَتْ بِرَيَّا الْقَرَنْفُلِ (٥)

---

(١) الغواية : الجهالة . تنجلي : تنكشف .
« ٢ » المرط ازار خز معلم
« ٣ » اجزنا : قطعنا . العقنقل الرمل المتعقد
« ٤ » هصرت : جذبت : الفودان : جانبا الرأس . هضيم الكشح: ضامرة الوسط .
« ٥ » تضوع : فاح

إذَا قُلْتُ هَاتِي نَوِّلِينِي تَمَايَلَتْ
عَلَيَّ هَضِيمَ الْكَشْحِ رَيَّا الْمُخَلْخَلِ [1]

مُهَفْهَفَةٌ بَيْضَاءُ غَيْرُ مُفَاضَةٍ
تَرَائِبُهَا مَصْقُولَةٌ كَالسَّجَنْجَلِ [2]

تَصُدُّ وَتُبْدِي عَنْ أَسِيلٍ وَتَتَّقِي
بِنَاظِرَةٍ مِنْ وَحْشِ وَجْرَةَ مُطْفِلِ [3]

وَجِيدٍ كَجِيدِ الرِّئْمِ لَيْسَ بِفَاحِشٍ
إذَا هِيَ نَصَّتْهُ وَلَا بِمُعَطَّلِ [4]

وَفَرْعٍ يَزِينُ الْمَتْنَ أَسْوَدَ فَاحِمٍ
أَثِيثٍ كَقِنْوِ النَّخْلَةِ الْمُتَعَثْكِلِ [5]

«١» نوليني : اعطيني . والشطر الثاني مكرر ولاشك انه دخيل .

(٢) مهفهفة : خفيفة اللحم . الترائب : موضع القلادة من الصدر . السجنجل : كلمة رومية ومعناها المرآة .

(٣) تصد : تعرض عنا وتبدي عن خد أسيل . من وحش وجرة مطفل شبهها بغزالة تنظر الى جآذرها فهي تميل الى عنقها .

(٤) والجيد : العنق. الرئم : الظبي الابيض. نصته : رفعته . المعطل : الذي لا حلي عليه .

(٥) الفرع : الشعر التام . الأثيث : الكثير المتراكب . القنو : العذق .

غَدَائِرُهُ مُسْتَشْزِرَاتٌ إِلَى الْعُـلا
تَضِلُّ الْمَدَارى فِي مُثَنًّى وَمُرْسَلِ (١)

وَكَشْحٍ لَطِيفٍ كَالْجَدِيلِ مُخَصَّرٍ
وَسَاقٍ كَأُنْبُوبِ السَّقِيِّ الْمُذَلَّلِ (٢)

وَتُضْحِي فَتِيتُ الْمِسْكِ فَوْقَ فِرَاشِهَا
نَؤُمَ الضُّحَى لَمْ تَنْتَطِقْ عَنْ تَفَضُّلِ (٣)

وَتَعْطُو بِرَخْصٍ غَيْرِ شَثْنٍ كَأَنَّـهُ
أَسَارِيعُ ظَبْيٍ أَوْ مَسَاوِيكُ إِسْحِلِ (٤)

كَبِكْرِ الْمُقَانَاةِ الْبَيَـاضِ بِصُفْرَةٍ
غَذَاهَا نَمِيرُ الْمَاءِ غَيْرُ الْمُحَلَّلِ (٥)

---

(١) غدائره : الذوائب . مستشزرات . مجدولات مرتفعات . المدارى هو المشط ، مثنى ومرسل : اي بعضه مثني متجعد وبعضه مسترسل غير متجعد .

(٢) النوب السقى المذلل : هو نبات يقوم على سوق في مناقع الماء

(٣) تضحى : تنتبه من نومها في صحوة النهار. فتيت المسك : ما تفتت منه

(٤) تعطو برخص : تتناول ببنان لطيف . اساريع ظبي : كـأنه دود صغار ممـا يرى في الكثيب المسمى بظبي . الاسحل : شجر تتخذ من عروقه مساويك كالأراك .

(٥) كبكر : كبيضة النعامة . المقاناة : التي خالط بياضها صفرة وحمرة .

تُضِيءُ الظَّلَامَ بِالعِشَاءِ كَأَنَّهَا
مَنَـــارَةُ مُمْسَى رَاهِبٍ مُتَبَتِّلِ (١)

إلى مِثْلِهَا يَرْنُو الحَلِيمُ صَبَابَـــةً
إِذَا مَا اسْبَكَرَّتْ بَيْنَ دِرْعٍ وَمِجْوَلِ (٢)

تَسَلَّتْ عَمَايَاتُ الرِّجَالِ عَنِ الصِّبَا
وَلَيْسَ فُؤَادِي عَنْ هَوَاهَا بِمُنْسَلِ (٣)

فنحن بعد ان عرضنا هذه الابيات التي سميناها «توطئة» لأن الشاعر مهدبها لأغراضه التالية في المعلقة ، ولأن مؤرخي الادب اجمعوا على ان الشاعر مهد لمعلقته بذكر الأحبة ، نود ان ندرس هذه الابيات بعيدين عن كل تأثير ، هذه التوطئة تعداثنين وخمسين بيتاً من المعلقة التي تبلغ جميعاً اثنين وتسعين بيتاً ، فأنت تقرمعي إذا ان هذه الابيات التي سميناها « توطئة » والتي اعتبرها مؤرخو الادب تمهيداً للاغراض الاخرى هي اكبر من المعلقة نفسها ،

---

(١) المنارة يريد بها سراج الراهب الذي يستضيء به في وحدته وانقطاعه لعبادة ربه .

(٢) يرنو : يديم النظر . اسكبرت : امتدت مشت في استقامة . بين درع ومجول يريد بها شابة عيداء .

(٣) تسلت : ذهبت . العماية : الجهالة . عن الصبا : عن اللهو . بمنسل بسال ولا تارك

ويفهم من قول المؤرخين : مهد لأغراضه بذكر الأحبة ، ومن قولهم ان الشعراء الجاهليين اتبعوا نهج امرىء القيس ، فبدأوا به قصائدهم بالغزل - على حد تسميتهم لهذه الابيـــات الاولى في في معلقات الشعراء الجاهليين - قلت يفهم من ذلك ان التمهيد ، او البدء يكون بأبيات قليلة جداً بالنسبة الى المعلقة او الى القصيدة ذاتها ، وهذا القول ينطبق على اكثر معلقات الشعراء الجاهليين دون شاعرنا امرىء القيس ، مع انهم جميعاً قلدوه ، نحن لا ننكر انهم قلدوه بالكيف ولم يقلدوه بالـكم ، ولكن مطلع هذه المعلقة الكبرى كان عرضة في اكثر اقسامه لوضع المنتحلين على ما ارى .

والذي ساعد هؤلاء ان يضيفوا إلى امريء القيس ما ليس له ان الشاعر لم يوفق الى ربط اجزاء القصيدة مع ان الغرض واحد في كل هذه الأبيات وهو « الحب » ثانياً ان هذه التوطئة ذاتها هي ذات مقاطع غير مؤتلفة ، ويكاد كل مقطع من هذه التوطئة ينفرد بذكرى خاصة ، وبوضع خاص لا يتفق مع الذكرى الاولى ، والوضع الاول .

فالأبيات التسعة الاولى تشكل مقطعاً خاصاً ، تام المعنى والغرض فهو يصور فيه وقوفه عند اطلال ابنة عمه عنيزة ، ونحن نقر هذا المقطع ولا نشك فيه لأنه جاهلي الطابـــع والصور ، والتشابيه وخاصة هذا البيت الذي ان دل على شيء فأنما يدل على سذاجة التصوير ، وعلى بعده عن الذوق وخاصة في موقف فيه حب ، وفيه ذكرى ، وفيه صور للحبيب الذي ارتحل .

تَرَى بَعَرَ الصِّيرانِ في عَرَصَاتِهَا
وَقِيعَانِهَا كَأَنَّهُ حَبُّ فُلْفُلِ

ومع ان وجود هذا « البعر » لا يعطي الفكرة التي يريدها الشاعر ، وهي الدلالة على ان قومها قد ارتحلوا « ذلك لان هذا البعر هو اثار هذه القطعان من الماشية التي كانت تعايش عنيزة في هذه المضارب التي اقاموها « بسقط اللوى » فالشاعر يصف ما يراه دون ان يحتاط لموقفه ودون ان يبتعد عن وصف الاشياء التي لا تتفق وجمال الموقف .

ثم نرى ان البيتين العاشر والحادي عشر يعتبران مقطعاً منفرداً اذ يذكر فيهما الشاعر صديقتين له هما « ام الحويرث » و « ام الرباب » اللتان يشبه رائحتهما بالمسك ، عدا عن ان هذين البيتين يضعفان المقطع الاول الجميل الذي يصور حب الشاعر وشوقه لعنيزة ، ويصوران الشاعر بصورة الرجل الذي يبكي حبه ، والذي له صاحبتان عدا عنيزة ، وهذا يذهب صفة الاخلاص عن حب امرىء القيس ونراه بعد اذا يبكي هذا الحب في قوله :

فَفَاضَتْ دُمُوعُ العَيْنِ مِنِّي صَبَابَةً
على النَّحْرِ حَتَّى بَلَّ دَمْعِي مِحْمَلِي

وهنا نود ان نتساءل ، أبكاء الشاعر هو على ارتحال عنيزة ، ام على صديقتيه « ام الحويرث » و « ام الرباب » او عليهن جميعاً ، ومهما تكن النتيجة فالشاعر يبدو ضعيفاً قلقاً لا يدري في وقفته

هذه « بسقط اللوى » اي حبيب يذكره او يبكيه مع ان غرضه من ام الحويرث وام الرباب ان يقيم الصلة بين عنيزة من جهة وبينهما من جهة اخرى ، فيشير الى ان قلبه كان كثيراً ما يصاب بفراق الاحبة .

ومقطع آخر في هذه التوطئة يوم عقر للعذارى مطيته فأقبلن عليها يأكلن من شحمها ولحمها ، هذا المقطع الذي ينتهي بقوله :

تُدارُ عَلَيْنا بالسَّدِيفِ صِحَافُنـــا
وَيُؤْتَى إلَيْنـــا بالْعَبِيطِ الْمُثَمَّلِ

ومع اننا نشك في ان الشاعر يوم دارة جلجل قد ارتحل على ناقة عنيزة ، إذ ان هذه القصة التي تفسر هذا اليوم لا تشير الى ان عنيزة اقبلت مع صويحباتها وكل منهن على ناقة ، وكان معهن الخدم ، ونحن لو سلمنا جدلا بصحة هذا البيت الذي يشير الى ان الشاعر قد ارتحل على ناقة عنيزة ، وان الخدم قامت على خدمته وخدمتهن جميعاً يوم دارة جلجل الذي اصبح معروفاً من الجميع قلت لو سلمنا جدلاً بكل هذا ، لوجد الحياء سبيلا الى نفس الشاعر والى ان يطلب اليها والى صويحباتها ان يخرجن من الماء عاريات امامه والخدم يرقبنهن ، ولأبت نفسه وهو العربي ابن الملك ان يجعل الخدم يتأملون اجساد هؤلاء الفتيات وبينهن ابنة عمه ، فأين اذن مروءة الاعرابي ، واين اخلاقه في موقف كهذا ، ومع كل ذلك فالرواة على اغلب الظن هم الذين تمموا وضع ابيات « دارة جلجل » بهذا المقطع الجديد الذي يبدأ بقوله .

وَيَوْمَ دَخَلْتُ الْخِدْرَ خِدْرَ عُنَيْزَةٍ
فَقَالَتْ لَكَ الْوَيْلَاتُ إِنَّكَ مُرْجِلِي

وينتهي وفقا لسرد الابيات في المعلقة عند قولهم

بِثَغْرٍ كَمِثْلِ الْأُقْحُوَانِ مُنَوَّرٍ
نَقِيِّ الثَّنَايَا أَشْنَبٍ غَيْرِ أَثْعَلِ

ثم اذا صحت الابيات الثلاثة التي احجمنا عن ذكر اثنين منها لبعدهما عن الاخلاق ، ولنفور الطبيعة الانسانية منهما فضلاً عن موقفه من ابنة عمه وصويحباتها في « دارة جلجل » متهتكا بعيداً عن المروءة والفضيلة منحط الاخلاق دنيئاً ، وهذا مايشك به مع شاعر يخاطب ابنة عمه في لغة الحب .

ومع اني اشك بان الشاعر كان له خدم يوم « دارة جلجل » واستهجن هذين البيتين اللذين حذفتهما من المعلقة لأنهما لا يتفقان مع وضع امرىء القيس ، وهو يبدأ معلقته هذه باجمل المطالع في الادب العربي ، وابعدها اثراً في النفس ، ارى ان هذين البيتين قد وضعا مع الابيات الاخرى التي تبدأ بقوله :

أَفَاطِمَ مَهْلاً بَعْضَ هٰذَا التَّدَلُّلِ
وَإِنْ كُنْتِ قَدْ أَزْمَعْتِ صَرْمِي فَأَجْمِلِي

والتي تنتهي بقوله :

مُهَفْهَفَةٌ بَيْضَـــاءُ غَيْرُ مُفَاضَةٍ
تَرَائِبُهَا مَصْقُولَةٌ كَالسَّجَنْجَلِ

ودليلنا على ذلك اننا اذا حذفنا هذه الابيات استقام الغرض من القصيدة ، وتتابع الوصف دونما اي انفصال ، وتم المعنى والغرض ، فالشاعر وهو يصف ثغر حسنائه ، ويشبهه بالاقحوان وانه جميل لم تتراكب اسنانه وذلك في قوله :

بِثَغْرٍ كَمِثْلِ الأُقْحُوَانِ مُنَوَّرٍ
نَقِيِّ الثَّنَايَا أَشْنَبٍ غَيْرَ أَثْعَلِ

يتابع وصف حركاتها في جلساتها وكيف كانت تعرض عنه وتبدي عن خد اسيل ، وكانت اشبه ما تكون بغزالة تنظر الى جآذرها :

تَصُدُّ وَتُبْدِي عَنْ أَسِيلٍ وَتَتَّقِي
بِنَاظِرَةٍ مِنْ وَحْشِ وَجْرَةَ مُطْفِلِ

ثم يتابع وصفها فيقول :

وَجِيدٍ كَجِيدِ الرِّئْمِ لَيْسَ بِفَاحِشٍ
إِذَا هِيَ نَصَّتْهُ وَلَا بِمُعَطَّلِ

الى آخر تلك الابيات التي يصفها بها والتي يختمها بقوله :

إلى مِثْلِهَا يَرْنُو ٱلْحَلِيمُ صَبَابَةً
إذا ما اسبكَرّتْ بَيْنَ دِرْعٍ وَمِجْوَلِ

الا ترى بعد ان حذفنا هـذه الأبيات ، ان المعنى قد استقام وتتابعت صور الشاعر في وصف محاسنها فجاءت مكتملة الاجزاء مؤتلفة المعنى تامة الغرض ، وقد تبين لك اننا كنا على حق عندما رأينا ان حذف هذه الأبيات التي لا تمت الى روح القصيدة بصلة ، وان كانت تتفق معها في الوزن وفي القافية . فلنقرأ اذن هـذه الأبيات بعد ان استقام معناها .

بِثَغْرٍ كَمِثْلِ الأُقْحُوانِ مُنَـوَّرٍ
نَقِيِّ ٱلثَّنَايَا اشْنَبٍ غَـيْرَ أَثْعَلِ
تَصُدُّ وتُبْدِي عَنْ أَسِيلٍ وتَتَّقِي
بِنَاظِرَةٍ مِنْ وَحْشِ وَجْرَةَ مُطْفِلِ
وَجِيدٍ كَجِيدِ الرِّئْمِ لَيْسَ بِفَاحِشٍ
إذَا هِيَ نَصَّتْـهُ ولا بِمُعَطَّـلِ
وَفَرْعٍ يَزِينُ المَتْنَ أَسْوَدَ فَاحِمٍ
أَثِيثٍ كَقِنْوِ ٱلنَّخْلَةِ ٱلْمُتَعَثْكِلِ

غَـدَائِرُهُ مُسْتَشْزِرَاتٌ الى العُلاَ
تَضِلُّ المَدَارَى في مُثَنَّى وَمُرْسَلِ

وَكَشْحٍ لَطِيفٍ كالجَـدِيلِ مُخَصَّرٍ
وسَاقٍ كَأُنْبُوبِ السَّقِيِّ المُـذَلَّلِ

وَتُضْحِي فَتِيتُ المِسْكِ فَوْقَ فِرَاشِهَا
نَؤُومُ الضُّحى لَمْ تَنْتَطِقْ عَنْ تَفَضُّلِ

وتَعْطُو بِرَخْصٍ غَيْرِ شَثْنٍ كَأَنَّهُ
أَسَارِيعُ ظَبْيٍ أو مَسَاوِيكُ إِسْحِلِ

كَبِكْرِ المُقَانَاةِ البَيَاضِ بِصُفْرَةٍ
غَذَاهَا نَمِيرُ المَـاءِ غَيْرُ المُحَلَّـلِ

تُضِيءُ الظَّلاَمَ بالعِشَاءِ كَأَنَّهَـا
مَنَـارَةُ مُمْسَى رَاهِبٍ مُتَبَتِّـلِ

إِلى مِثْلِهَا يَرْنُو الحَلِيمُ صَبَـابَةً
إِذَا ما اسْبَكَرَّتْ بَيْنَ دِرْعٍ وَمِجْوَلِ

تَسَلَّتْ عَمَايَاتُ الرِّجَالِ عَنْ الصِّبَا
وَلَيْسَ فُؤَادِي عَنْ هَوَاهَا بِمُنْسَلِ

وناحية اخرى في هذه الابيات التي حذفت وخاصة في هذا البيت .

مُهَفْهَفَةٌ بَيْضَاءُ غَيْرُ مُفَاضَةٍ
تَرَائِبُهَا مَصْقُولَةٌ كَالسَّجَنْجَلِ

قلت وناحية اخرى في هذا البيت الذي اثبت : فأين لامريء القيس ان يشبهها « بالسجنجل » اي بالمرآة ،والسجنجل هذه كلمة رومية ، واين مثل هذه الكلمات الرومية في شعره لنقر ان الشاعر قد وقف على معاني هـذه الكلمات فذكرها في ابياته ورب قائل يقول ان امرأ القيس ذهب الى بـلاد الروم وزار « بوستنيانوس » وطلب اليـه ان يساعده على بني اسد ، وأنى لامريء القيس - الذي مات في بعض الطريق وهو عائد الى بلده سيء الحال ،على قول الرواة - ان ينظم مثل هذا البيت ،ومؤرخو الادب يجمعون على ان الشاعر نظم المعلقة ايام لهوه ، وهم متفقون ايضا انه عندما بلغه نعي ابيه أقسم بأن لا يقول الشعر ... الخ فكيف به يأتي على مثل هذه اللفظة الرومية في شعره ، وشعراء العرب لم يأتوا على مثل هذه الكلمات الرومية الا بعد عهد الاعشى الذي سن لهم هذه الطريقة (١) لكثرة تجواله ورحلاته .

---

(١) الروائع فؤاد افرام البستاني عدد ٣١ الأعشى الأكبر

ثم بعد ان حذفنا من هذه التوطئة ستة وعشرين بيتاً فبقيت خمسة وعشرين ، الا تراها اصبحت تتفق مع المعلقة التي تعد نيفا وتسعين بيتا ، واستقام عندئذ رأي النقاد والمؤرخين بأن امرأ القيس كان يمهد لقصائده بذكر الاحبة ، واصبحت هذه التوطئة ذات ثلاثة مقاطع يعرض فيها الشاعر صورة واحدة ، ويذكر فيها ابنة عمه ، ويوم نحرلها مطيته ، ويصفها ، فاستقام بذلك غرض الشاعر من هذه « التوطئة » واصبحت هذه المقاطع الثلاثة ذات طابع واحد في «عنيزة » واصبح امرؤ القيس ، الى الرجل الملك الشاعر الشريف ، اقرب منه الى الرجل المتبذل الذي لا يرعوي ان يخدع ابنة عمه بطريقة دنيئة كما يلحظ مفهوم هذه الابيات التي أضافوها اليه .

فهذه هي « التوطئة » التي تتفق ابياتها من حيث الغرض ومن حيث تتابع الحوادث في عرض الشاعر لمعلقته التي يبدأها . بهذه الابيات التي يشير فيها الى وقفته عند دار ابنة عمه ، وانه بكاها بكاء كريماً سخياً ، واود هنا ان اشير الى ان بكاء الشاعر لم يكن جديداً في الادب العربي ، ولم يسنه امرؤ القيس كعادة للجاهليين لأنه هو في بكائه يقلد طريقة ابن حذام (١) في بكائه على الاطلال

---

(١) قيل لأبي عبيدة ، هل قال الشعر احد قبل امرىء القيس ، قال نعم، قدم علينا رجال من بادية بني جعفر بن كلاب فكنا نأتيهم فنكتب عنهم فقالوا : ممن ابن حذام ؟ قلنا : ما سمعنا به ! قالوا : بلى قد سمعنا به ورجونا ان يكون عندكم من علم لأنكم اهل امصار ، ولقد بكى في الدمن.

عُوجَا على الطَّلَلِ المُحِيلِ لَعَلَّنـا
نَبْكي الدِّيارَ كما بَكَى ابنُ حِذَامِ (٢)

حيث يقول في احدى قصائده :

فهذا البيت دليل قاطع على ان الشاعر ليس هو اول من بكى واستبكى خلافا لرأي النقاد والمؤرخين .

ونحن لو تدارسنا هذه التوطئة جميعا التي يعرض فيها الشاعر لأكثر ايام حياته مرحا ، وأبعدها اثرا ، فأين تريد ان نلتمس هذا الغزل الرقيق ، وهذا الشعر الذي يصور شعوره نحو عنيزة

---

(١) عوجا: اعطفا وانزلا . الطلل المحيل : الذي اتت عليه الأحوال فغيرته قبل امرىء القيس ، وقد ذكره امرؤ القيس في شعره حيث يقول :

عُوجَا خَلِيلَيَّ ٱلْغَدَاةَ لَعَلَّنَـا
نَبْـكي ٱلدِّيَارَ كَمَا بَكَى ٱبْنُ خِدَامِ

وابن جذام ، وخدام ، وخذام واحـد ، وقال الآمدي : وبعض الرواة يروي بيت امريء القيس :

عُوجَا عَلَى ٱلطَّلَلِ ٱلْعَمِيلِ لَعَلَّنَا
نَبْكي ٱلدِّيَارَ كَمَا بَكَى أَبْنُ حَمَامِ

ونقل صاحب الخزانة عن المرصع لابن الأثير ان ابن حذيم شاعر في قديم الدهر يقال انه كان طبيباً حاذقاً ، يضرب به المثل في الطب فيقال أطب بالكي من ابن حذيم وسماه اوس حذيماً ــ يعني انه حذف ابن .

الديوان صفحة ١٧٦ طبعة مطبعة الاستقامة في القاهرة .

ويغازلها به او نحو غيرها من الحسان ، أتريد ان نلتمس الغزل في الوقوف على الاطلال وفي البكاء على طريقة ابن حذام ، ام تريـد ان نلتمس الغزل في تحديد موقع دارها بين « سقط اللوى » من جهة وبين « الدخول وحومل » من جهة ثانيـــة ، ام ترى ان نلتمسه في هذا الوصف لذكريات « دارة جلجل » ولهذا الطعام الذي اسرف فيه وصويحباته . اتريد ان نلتمس الغزل الرقيق في هذه الابيات وان نقارن بينها وبين غزل عمر ابن ابي ربيعة في ابياته ، وكيف تكون المقارنة في تصوير اشياء ملموسة مادية لا تمت الى القلب بصلة من الصلات ، وبين احاسيس وشعور تصدر عن القلب والجوارح وما يمت الى القلب والجوارح بصلة ، ونحن لو اخذنا برأي الاستاذ رئيف خوري وبأن الابيات التي حذفناهـــا من معلقة امرىء القيس هي له لتبين لنا انها دخيلة لا تتفق مع سياق المعلقة ولا تجد لنفسها مكاناً فيها لانها حشرت حشراً ، ولأنهـا ذات طابع خاص وهي قطعة متممة لرائية عمر القصصية ، ونحن عند عرضنا لدراسة هـــذه الابيات كنا قد اشرنا الى ان عمر قد دسها على امرىء القيس ، ويبدو ذلك من الابيات ذاتها لانها لم تكن بعد قد استكملت خصائص عمر وشروط غزله الفنية ، ولا تتفق مع ما ابتكره واستحدثه في الادب العربي فهي جلية واضحة المعنى ، بدلالة انها ما زالت في طور النشوء والارتقاء ، وان الشاعر الاموي بعد ان قضى ليلته عند « نعم » وتركت هذه الزيارة في نفسه اثرا ، وهي تامة من حيث انها قطعة ذات غرض مستقل ، ووجد في معلقة امرىء القيس مجالاً لحشوها ، فدسها في

معلقته لأن الشاعر الجاهلي لم يوفق كما قدمت في حبك ابياته جميعاً وكانت «توطئة» ذات مقاطع ثلاثة اضافها اليه، ونسبها، ولم يفطن الرواة والنقاد الى ذلك الى ان شك بها عميد الادب العربي الدكتور طه حسين(١) ، وان لم يعرض لكل هذه الاسباب التي بينا ، والذي دفع عمر ان يضيف الى معلقة الشاعر الجاهلي ما ليس له ، انه اراد ان يمتحن مقدرته الشعرية ، ولما رأى ان هذه الفكرة قد ملكت على الناس وعلم انه اصبح ذا شاعرية توازي في هذا الباب شاعرية امريء القيس اعلن قصيدته بعد ان اعمل الفكر وابدل القافية الاولى وحسن من هذه الابيات ، بعد ان نضج فنه لان شعر عمر كما اسلفت قد تطور تطوراً ، بدليل قول جرير « ما زال هذا القرشي يهذي حتى قال الشعر . » وقول جرير هنا ان دل على شيء فأنما يدل على هذه المحاولات التي قام بها الشاعر الاموي لينجح في مضمار الشعر فلم يفلح ، لذلك تربص زمانا ، وحسن شعره ، واكثر الشعراء - لم ينبغوا مرة واحدة - فلما استقام له الأمر اراد ان يمتحن نفسه كما قدمت فنسب هذا المقطع الذي حذفناه من توطئة كبرى قصائد امريء القيس الى المعلقة ، وتعمد عمر على ما ارى اضافة هذا المقطع بعينه من رائيته الكبرى لما في هذا المقطع من صلات بينه وبين ابيات الملك الضليل ؛ ولا غرابة في ان يضيف عمر مقطعاً من قصيدته الى قصيدة الشاعر الجاهلي لان الجاحظ نسب كتبا الى عبد الله بن المقفع ليمتحن مكانته الكتابية والادبية ، ولولا ان الجاحظ اشار الى هذه الكتب التي نسبها الى ابن المقفع لم يدر بخلد احد انها قد

(١) حديث الاربعاء ، وقد تقدم المصدر

دست عليه .

فبعد كل هذا العرض والنقـد والاستنتاج ، اين النغم الذي وعاه عمر من قيثارة الملك الضليل على رأي الاستاذ رئيف خوري واين الاسلوب القصصي في معلقة امرىء القيس الذي قلده به عمر على رأي الاستاذ بطرس البستاني .

وما دمنا قد قرنا مصدر هذه الابيات واشرنا الى العوامل التي دفعت عمر ان يدسها . . فليس ثمة من طائل في الوقوف عندها طويلاً فامرؤ القيس يبدو اكثر ما يبدو في هـــذه الابيات التي سأعرضها عليك :

فَأَصْبَحْتُ مَعْشُوقاً وَأَصْبَحَ بَعْلُهَا
عَلَيْهِ قَتَامٌ ، كَاسِفَ ٱللَّوْنِ وَٱلبالِ (١)

يَغطُّ غَطِيطَ ٱلْبَكْرِ شُدَّ خِنَاقُهُ
لِيَقْتُلَنِي وَٱلْمَرْءُ لَيْسَ بِقَتَّالِ (٢)

أَيَقْتُلُـنِي وَٱلْمَشْرَفِيُّ مُضَاجِعِي
وَمَسْنُونَةٌ زُرْقٌ كَأَنْيَابِ أَغْوَالِ (٣)

---

(١) بعلها : زوجها . القتام : غبار الخزي .

(٢) ليس بقتال : لا يعرف القتل .

(٣) المشرفي : السيف . مسنونة : نصال الرماح . اغوال : يريد التهويل وهي جمع غول : شيطان .

وَلَيْسَ بِذي سَيْفٍ فَيَقْتُلني به
وَلَيْسَ بِذي رِمْحٍ وَلَيْسَ بِنَبَّالِ (٤)
أَيَقْتُلُني وَقَدْ قَطَرْتُ فُؤَادَهـا
كَمَا قَطَرَ ٱلْمَهْنُوءَةَ ٱلرَّجُلُ ٱلطَّالِي (٥)
وَقَدْ عَلِمَتْ سَلْمَى ،وَإِنْ كَانَ بَعْلَهَا
بِأَنَّ ٱلْفَتَى يَهْذِي وَلَيْسَ بِفَعَّالِ (٦)
وَمَاذَا عَلَيْهِ إِنْ ذَكَرْتُ أَوَانِساً
كَغِزْلَانِ رَمْلٍ ، في مَحَارِيبِ أَقْوَالِي (١)

ومع ان هذه الأبيات قد تكون بعيـــدة عن روح العصر الاموي ، وعن شعر عمر ابن ابي ربيعـــة ، فنحن نحتاط عندما نؤكد انها لامرىء القيس ، فهي في مبناها قد تشتمل على بعض خصائص الشعر الجاهلي ، ولكن في روحها عامة قد لا تتفـــق ووضع امرىء القيس ، لذلك نحـــن نميل الى الشك بصحـــة

(٤) هو ليس من الفرسان الطاعنين بالرماح ، ولا من الشجعان الضاربين بالسيوف ، ولا من الرماة اصحاب النبال .

(٥) المهنوءة : الناقة تطلى بالقطران .

(٦) الفتى : يريد به زوجها ، وأنه يقول ولا يفعل .

(١) الأوانس : الفتيات اللائي يؤنس بحديثهن . محاريب اقوالي : يريـد مطالع قصائدي .

نسبتها اليه ، لأن الرواة تحدثنا ان امرأ القيس كان مكروهاً من النساء بدليل ابياته :

أَمَاوِيَّ هَلْ لِي عِنْدَكُمْ مِنْ مُعَرَّسِ
أَمِ الصَّرْمِ تَخْتَارِينَ بِالْوَصْلِ نَيْأَسِ (٢)
أَبِينِي لَنَا إِنَّ ٱلصَّرِيمَةَ رَاحَةٌ
مِنَ ٱلشَّكِّ ذِي ٱلْمَخْلُوجَةِ ٱلْمُتَلَبِّسِ (٣)

ودليل آخر على كراهية النساء له قوله :

أَفَاطِمَ مَهْلاً بَعْضَ هَذَا التَّدَلُّلِ
وَإِنْ كُنْتِ قَدْ أَزْمَعْتِ صَرْمِي فَأَجْمِلِي
وَإِنْ كُنْتِ قَدْ سَاءَتْكِ مِنِّي خَلِيقَةٌ
فَسُلِّي ثِيَابِي مِنْ ثِيَابِكِ تَنْسَلِي
أَغَرَّكِ مِنِّي أَنَّ حُبَّكِ قَاتِلِي
وَأَنَّكِ مَهْمَا تَأْمُرِي ٱلْقَلْبَ يَفْعَلِ

---

(١) اماويه : احدى صويحباته . معرس : نزول وحسن معاشرة . الصرم الهجر والقطيعة .

(٢) أبيني : أوضحي وصرحي ، إن وصلا وان قطيعة . ذو المخلوجـة ، يعني ان القطيعة والهجر البين أولى من الشك الناشيء عن اللبس والخلط .

وبعد ان نتبين كراهية النساء للشاعر ونفورهن منه وابتعادهن عنه في اكثر ابياته ، وبعد ان نطلع على رأي ابن قتيبة في التعليق على هذه الأبيات (١) حيث يقول « انه يستدل من هذه الأبيات بأن الشاعر لم يكن معشوقا من الحسان محببا اليهن وقد سأل الشاعر مرة زوجة له « ما يكره النساء مني . » قالت « يكرهن منك انك اذا عرقت فحت بريح كلب . » فقال « انت صدقتني ان اهلي ارضعوني بلبن كلبة (٢). » ويقال « لم تصبر عليه الا امرأة من كندة يقال لها هند وكان اكثر اولاده منها . » (٣)

قلت انني اشك في صحة نسبة هذه الأبيات اليه ، فبعد ان تقف في شعره على أمر هذه « الكراهية » وبعد ان يحدثنا الرواة باخباره وانه كان مكروهاً من النساء ، وبعد هذه المصارحة في حديثه مع امرأته وفي اقراره بهذا الحديث ، وانه كان يشعر بكراهية النساء له بعد كل هذا كيف تريد ان نؤمن بانه اصبح معشوقا ، ومعشوقا من هذه المترفة صاحبة الجاه العريض ، والثراء الواسع ، التي لم يكن يصل اليها إلا بعد ان يتخطى حراسا ، وهي اشبه ما تكون بالبيضة لصيانتها وشرفها ؛ قلت كيف تريد ان نؤمن بانه اصبح معشوقا ونحن نعلم من امره وخبره مع الحسان وكرههن اياه ، ثم الا تؤمن معي بان هذه الابيات نسبت اليه ، والا تجد فيها روح عمر ابن ابي ربيعة وفنه ؟

---

(١) كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة صفحة ٦٩ طبعة دار احياء الكتب العربية : تحقيق وشرح احمد محمد شاكر

(٢) كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة ٧٠

(٣) المصدر نفسه

فَأَنْتَ أَبا ٱلْخطّابِ غيْرَ مُدافعٍ
عَلَيَّ أَمِيرٌ ، مَا مَكَثْتَ مُؤَمَّرُ

اولا تؤمن بعد ذلك ان الحب صفة من صفات عمر ، وانه كان محبوباً من الحسان جميعاً ، وتظهر هـذه الخاصة في شعره اطلاقا فكيف يريد النقاد ان نقر بصحة نسبة هذه الابيات الغزلية الى امريء القيس .

ونحن لو ذهبنا هذا المذهب في دراسة الشاعر الجاهلي ، ولو وقفنا على اكثر شعره لن نلمس فيه غزلاً رقيقا ، او حباً صادقا ، ولن نلمس روح الاسلوب القصصي الذي هو من خصائص العصر الاموي ومن طابع القصص القرآني (١) . انى لامرىء القيس الذي لم يقف على خصائص هذا الفن ، ان يعرض شعره بهذا الاسلوب رغم ان ابياته جميعا ليس فيها من الغزل شيء يذكر كما قدمت ، انما هي في اكثرها عتاب ، وذكرى لهؤلاء الحسان اللواتي سعى الى حبهن والذي لم يوفق الى رضاهن عـلى اغلب الظن ، وترانا تحقيقا لما ذهبنا اليه نعرض عليك امثلة من شعره لتطمئن الى الفكرة التي نقررها في هذا البحث :

خَلِيلَيَّ مُرَّا بي عَلَى أُمِّ جُنْدَبِ
لِتُقْضَى لُبَانَاتُ الفُؤَادِ المُعَذَّبِ

---

(١) قوله تعالى « نحن نقص عليك احسن القصص بما اوحينا اليك هذا القرآن وان كنت من قبله لمن الغافلين » الآية (٣) سورة يوسف.

فَإِنَّكُما إِنْ تنظُراني ساعَةً
مِنَ ٱلدَّهْرِ تَنْفَعْنِي لَدَى أُمِّ جُنْدَبِ

أَلَمْ تَرَيَانِي كُلَّمَا جِئْتُ طَارِقاً
وَجَدْتُ بِهـا طِيباً وَإِنْ لَمْ تُطَيَّبِ

عَقِيلَةُ أَتْرَابٍ لَهَا لَا دَمِيمَةٌ
وَلَا ذَاتُ خَلْقٍ إِنْ تَأَمَّلْتِ جَانِبِ(١)

أَلَا لَيْتَ شِعْرِي كَيْفَ حَادِثُ وَصْلِهَا
وَكَيْفَ تُرَاعِي وُصْلَةَ المُتَغَيِّبِ(٢)

أَقَامَتْ عَلَى مَا بَيْنَنَا مِنْ مَوَدَّةٍ
أُمَيْمَةُ أَمْ صَارَتْ لِقَوْلِ المُخَبِّبِ

فَإِنْ تَنْأَ عَنْهَا حِقْبَةً لَا تُلَاقِهَا
فَإِنَّكَ مِمَّا أَحْدَثَتْ بِالمُجَرِّبِ

(١) عقيلة اتراب : الكريمة المخدرة . الأتراب : اللدات . لا دميمة : لا شوهاء الخلق . الجانب : القصير يود ان يطمئن اهى على العهد ام هى من الناكثات للعهود .

(٢) المتغيب : الزوج الغائب

تَبَصَّرْ خليلي هَلْ تَرى مِنْ ظَعَائِنِ
سَوَالِكَ نَقْباً بَيْنَ حَزْمَيْ شَعَبْعَبِ (١)

هذه الأبيات في اخبار ام جندب ، وام جندب هذه زوجته ماذا عسانا نلمس فيها ، فهو رغم انـه يصفها اجمل الوصف يشير الى ان الطيب يفوح منها مع انها لا تتطيب ، ورغم انه يخرجها آية في الجمال ، ويتفنن في تصويرها وذكر علاقته معها، لا تخرج ابياته هذه عن كونها تصور اسف الشاعر ، وما يحوط بقلبه من اسى عندما يحاول ان يزورها لأنها لا تكترث به ولا تعبأ له .

وخلاصة القول ان الشاعر الجاهلي انما كان يتعمد هذه الأبيات في ذكر الحسان ووصفهن ليوطيء بها لقصائده فيستهلها بهذا الوصف الجميـــل والتشبيب وهي كما عرضنا ابعد ما تكون عن الغزل (٢) ويبدو مذهبه جلياً في قوله :

مَاذَا عَلَيْه إِنْ ذَكَرْتُ أَوَانِساً
كَغِزْلَانِ رمْلٍ فِي محَارِيبِ أَقْوَالِ

فامرؤ القيس يريد قبل كل شيء اذن ان يشبب بالحسان وان يذكرهن في مطالع قصائده كما اشرت و « شبب » هنا تعطي في اللغة مفهوم البدء ، فتقول شبب قصيدته بفلانة اي ابتدأها، وتشببت النار اي اتقدت ، وامرؤ القيس في جميـع ابياته لا يعدو الناحية

(١) الظعائن. جمع ظعينة وهي ما تركبن المرأة الهوادج. شعبعب : ماء باليمامة
(٢) لقد حددنا كلمة غزل في مقدمة هذه الدراسة

الوصفية ، فيحق لنا اذن ان نقرر بان الشاعر وصّاف ، ونحن لا ننكر عليه انه وفق الى وصف الحسان من الجميلات اللواتي اتصل بهن ، ولم يوفق الى محادثتهن على نحو ما تحدده لفظة غزل في اللغة ، وبأنه لم يعرض هذا الوصف في اسلوب قصصي ، لأن مبنى هذه الأبيات لا يمت الى الاسلوب القصصي بصلة ما ، لأنّ الاسلوب القصصي اثر من آثار القرآن كما قدمت .

ونحن بعد أن وفقنا الى كل ذلك ، نرغب في تحقيق الغاية من دراستنا هذه ، فالنقاد مجمعون على ان الشعراء الجاهليين جميعا قلدوا امرأ القيس ، حتى ان عنترة اعتبر نفسه مقلداً حيث قال :

هَلْ غَادَرَ الشُّعراءُ مِنْ مُتَرَدَّمِ
أَمْ هَلْ عَرَفْتَ الدَّارَ بَعْدَ تَوَهُّمِ .

فاذا كان هؤلاء الشعراء الجاهليون قد قلدوا امرأ القيس في وقوفه على الأطلال ، ووصفه الليل ، والناقة وفي ذكر الأحبة ، وفي الاغراض المختلفة التي عرضها في شعره ، ترى لماذا لم يقلد هؤلاء الشعراء رأس طبقتهم في غزله ، إذا كان له ثمة من غزل على قول النقاد ، وفي اسلوبه القصصي هذا ، واين تريد ان نلمس تقليداً لامرىء القيس ، اتريد ان نلمس ذلك عند قتيل العشرين(١) كما نعته النقاد وهو شاب من حقه ان يلهو وان يسرف في اللهو ، وان يستمتع بالحب وبالحياة ، وهو الذي كان يحرص عليها ؟أتريد ان تجد اثراً لهذا الغزل ولهذا الاسلوب في معلقته التي

«١» طرفة بن العبد .

اعتبرها النقاد من كبريات المعلقات مع ان طرفة كان مقلاً ومع ان الشاعر قلد امرأ القيس في وقوفه على الاطلال وفي بكائه للحبيب، وهو لم يخرج في جميع ابياته التذكارية عن وصف هذا الحبيب :

لِخَوْلَةَ أَطْلاَلٌ بِبُرْقَةِ ثَهْمَدِ
تَلُوحُ كَبَاقِي الوَشْمِ فِي ظَاهِرِ اليَدِ
وُقُوفاً بها صَحْبِي عَلَيَّ مَطِيَّهُمْ،
يَقُولُونَ: «لاَ تَهْلِكْ أَسىً وَتَجَلَّدِ!»

والشاعر بعد ان يذكر حدوج المالكية، ويتغنى في وصفها، يعود الى هذا الحبيب فيقول فيه :

وَفِي الحَيِّ أَحْوَى، يَنْفُضُ المَرْدَ شَادِنٌ،
مُظَاهِرُ سِمْطَيْ لُؤْلُؤٍ وَزَبَرْجَدِ،
خَذُولٌ تُرَاعِي رَبْرَباً بِخَمِيلَةٍ،
تَنَاوَلُ أَطْرَافَ البَرِيرِ، وَتَرْتَدِي
وَتَبْسِمُ عَنْ أَلْمَى كَأَنَّ مُنَوَّراً
تَخَلَّلَ حُرَّ الرَّمْلِ دِعْصٌ لَهُ نَدِ

سَقَتْهُ إِيَاةُ الشَّمْسِ إِلَّا لِثَاتِهِ ،
أُسِفَّ ، وَلَمْ تكْدِمْ عَلَيْهِ بِإِثْمِدِ ؛
وَوَجْهٌ كَأَنَّ الشَّمْسَ أَلْقَتْ رِدَاءَهَا
عَلَيْهِ ، نَقِيُّ اللَّوْنِ ، لم يَتَخَدَّدِ .

فطرفة إذن يقلد صاحبنا في الوقوف على الأطلال الدارسة ، ويصف حسناءه وصفا اخاله اجمل وابعد عن التكلف والصناعة من وصف امرىء القيس ، ويبدو صريحا في مذهبه ، اذ يرى ان المرأة احدى ملذاته الثلاث ، وهو لا يتعدى في هذا الوصف الناحية الجسمانية :

وَتَقْصِيرُ يَوْمِ الدَّجْنِ ، والدَّجْنُ مُعْجِبٌ ،
بِبَهْكَنَةٍ تَحْتَ الخِبَاءِ المُعَمَّدِ ،

ففي هذه الابيات اين تريد ان نلمس الغزل ، واين تريد ان نلمس هذا الحوار وهذا الاسلوب القصصي الذي ابتكره امرؤ القيس وقلده به عمر ، فلماذا لم يقلد طرفة امرأ القيس في غزله وفي هذا الاسلوب القصصي ، وهو قد قلده في وقوفه على الأطلال وتوكأ على معنى عجز بيته او بالاحرى استخدمه جميعا عندما قال :

يَقُولُونَ لا تَهْلِكْ أَسىً وَتَجَلَّدِ .

ولقائل ان يقول : ان طرفة لو قدر له ان يحيا ، وان ينعم

كما نعم امرؤ القيس ، لخرج بهذا الوصف الى دنيا الشعور والانطلاق ، ونرى ان شاعراً يرى المرأة احدى رغباته ، وبعبارة ادق احدى ملذاته الثلاث ، لن يقوى ان يخرج بالحب من هذا النطاق المحدود المغلق البعيد عن الشعور والاحساس ، وان طرفة لو قدر له ان يعمر ، لوجدنا في شعره تهتكاً ، واسرافاً في اللهو وفي طلب اللذة على غرار اسراف امرىء القيس ولهوه .

ونحن لو وقفنا عند شعر هؤلاء الجاهليين على الاطلاق لن نجد عندهم سوى هذا اللحن الواحد ، والنغم الواحد ، يضعونه بطابعهم وباسلوبهم الذي درجوا عليه ، ولن نجد عند « عنترة » الذي نكب بحبه اسلوباً غير هذا الاسلوب ، وشعراً يخالف شعر هؤلاء مع ان عنترة كان اكثرهم للحبيب ذكراً .

ولنقرأ معاً هذه الأبيات من شعره التي يعتبرها النقاد من ارق ما وضعه عنترة في حب ابنة عمه عبلة :

بَيْنَ العقيقِ ، وَبَيْنَ بُرْقَةِ ثَهْمدِ
طَلَلٌ لِعَبْلَةَ مُستهِلُّ المَعْهدِ
يَا مسرحَ الآرَام فِي وَادي الِحمىَ
هَلْ فِيكَ ذو شَجَنٍ يَروحُ ويَغتدِي
يَا عبل كَمْ يُشْجَى فُؤادِي بالْنَّوى
وَيَرُوعني صَوْتُ الْغُرابِ الأَسْودِ

كيفَ السُّلوُّ ومَا سَمِعْتُ حَمَائِماً
يَنْدُبْنَ إلاَّ كُنْتُ أَوَّلَ مُنْشِدِ
ولقد حَبَسْتُ الدَّمْعَ لا بُخْلاً بِهِ
يومَ الوَداعِ على رُسُومِ المَعْهَدِ
وسألت طَيْرَ الدَّوْحِ كَمْ مثلي شجا
بِأنينِه وَحَنِينِه المُتَرَدَّدِ
قَالُوا اللقاء غَداً بِمُنْعَرج اللّوى
وا طُولَ شَوْقِ المُستهام إِلى غَدِ
وتَخال انفاسي إذا رَدَّدتُها
بين الطُّلُولِ مَحَتْ نُقُوشَ المبردِ

فهذه الأبيات هي على غرار طريقة الشعر الجاهلي في الوقوف على الاطلال ، وهي هنا انما تخالف نوعها ، هذا الشعر فتصف ألم الشاعر بطريقة اوضح ، كما تصور امنيته في لقاء عبلة ، ومع ان عنترة لم يكن بطلاً فارساً صنديداً ، الا من وراء هذا الحب الذي دفعه الى البطولة دفعاً ، وان عنترة لم يكن شاعراً رقيقا الا بفضل ابنة عمه ، وحبه اياها فنحن لا نستطيع ان نسمي هذا الشعر غزلا ، أو أن نسمي اسلوبه قصصياً ، لان الشاعر لم

يتعمد الغزل في هذه الأبيات الرقيقة ، ولم يحاول ان يعرض شعره في اسلوب قصصي ، وعنترة لا يتوخى في جميع هـذا الشعر الذي يعرضـه الا ان يعرض صوراً لبطولته ، ولهـذه المعارك التي يخوضها محاولاً ان يرضي كبرياء عبلاه علها تجد من بطولته ورجولته وهذه الشجاعة النادرة التي عرف بهـا ، ما يبرر حبها له :

هل غـادَرَ الشُّعراءُ من مُتَرَدَّمَ
أَمْ هلْ عَرفتَ الدَّارَ بعدَ تَوَهُّمِ
أَعياكَ رَسْمُ الدَّارِ لم يتكلَّمِ
حتى تـكلَّمَ كالأَصمِّ الأَعْجَمِ
وَلَقَدْ حَبَسْتُ بِهَا طويلاً نَاقَتِي
أَشْكُو الى سُفْعٍ رواكِدَ جُثَّمِ
يَا دَارَ عَبْلَةَ بالجِواءِ تَـكلَّمي
وعِمي صَباحاً دارَ عَبْلَةَ واسْلَمِي
دارٌ لآنِسَةٍ غَضِيضٍ طَرْفُها
طَوْعِ العِنـاقِ لَذِيذَةِ المُتَبَسَّمِ

فوقفتُ فيها ناقتي وكأنها
فدَنٌ لأقضيَ حاجةَ المتلوِّمِ
حُيِّيتَ مِنْ طللٍ تقادمَ عهدُهُ
أقوى وأقفر بعدَ أمِّ الهيثمِ
عُلِّقْتُها عرضاً وأقتُلُ قومَها
زعماً لعمرُ أبيكِ ليسَ بمزعمِ
كيفَ المزارُ وقد تربّعَ أهلُها
بعُنيزتينِ وأهلُنا بالغيلمِ
إنْ كُنتِ أزمعتِ الفراقَ فإنّما
زُمَّت ركابُكُمْ بليلٍ مُظلمِ
ما راعني إلّا حمولةُ أهلِها
وَسْطَ الديارِ تَسَفُّ حبَّ الخمخمِ

فهذه الأبيات التي عرضناها ، هي من هذه القصيدة ، الكبرى التي عرفت بالمعلقة ، ونحن نجد فيها طابع الاسلوب الجاهلي من وقوف على الأطلال ومن ذكر للأحبة ، مع شعور رقيق يختلج في قلب الشاعر ، وعنترة كما اسلفت في تصويره لهذا الشعور الرقيق

الذي يحسه انما يحاول ان يبين لعبلاه الألم الذي يعانيه ، والشوق الذي يداخله لعلها - كما قلت - تبادله حباً بحب ، فنحن لا ننكر ان عنترة هنا يبدو رقيقاً لطيفاً في هذا التصوير ، ولكن هذه الرقة وهذا اللطف لا يبرران ان نعتبر عنترة غزلاً ، وهو معرفته ولطفه في شعره ، لا يعدو الشعر الوصفي .

ونحن مهما حاولنا ان نعرض عليك من شعر عنترة الرقيق ومن شعر هؤلاء الشعراء الجاهليين ، فنحن لا نوفق الى ايجاد الشعر الغزلي ، بمفهومه الذي حددناه والذي عرضنا نماذج منه في شعر جميل بن معمر ، ومن شعر عمر ابن ابي ربيعة ولن نلمس في هذا الشعر الجاهلي الاسلوب القصصي الذي اوجـــده عمر ابن ابي ربيعة في الادب العربي .

فاذا كان الغزل في الادب الجاهلي ، والاسلوب القصصي من خصائص امرىء القيس كما يقول بعض النقاد وفي طليعتهم الاستاذان رئيف خوري ، وبطرس البستاني ، فكان من البديهي ان نرى اثراً لهذا الغزل ولهذا الاسلوب القصصي في شعر هؤلاء الجاهليين امثال طرفة وزهير والاعشى عامة ، وفي شعر عنترة خاصة ، لأن عنترة اوفرهم حظاً في هذا الباب ، وما دمنا لم نجد شيئاً من ذلك في شعر هؤلاء فيجب ان نأخذ بما رأيناه ، بان هذا الغزل وهذا الاسلوب هما طابع عمر ابن ابي ربيعة بلا منازع ، لأن طبيعة العصر ووقوف هذه الطبقة على الاسلوب القصصي في القرآن الكريم هو الذي اهاب بهذه الطبقة من الشعراء الاسلاميين ان يضعوا شعرهم بهذا الاسلوب .

قلت ان حامل لواء هذا الاسلوب هو عمر ابن ابي ربيعة اقتبسه من القصص القرآني ، في ســـورة الكهف ، وسورة يونس ، وسورة يوسف هذه السورة التي قد تكون قصة تامة بمفهوم القصة الحديثة ، نعم ان عمر هو حامل لواء هذا الاسلوب بلا منازع . ومع ان الفرزدق الذي تعلم القرآن الكريم باشارة الامام عليّ ، ووقف على اسلوبه القصصي ومفاهيمه الفنية حاول ان يعرض غزلاً بهذا الاسلوب فلم يوفق ولك ان تقرأ ابياته هذه :

فَيَا لَيْتَنـا كُنَّا بعيرَيْنِ لَا نُرى

عَلَى مَنْهَلٍ ، إِلَّا نُشَلُّ وَنُقْذَفُ

كِلَانَا بِهِ عَرٌّ يُخَافُ قِرَافُهُ

عَلَى النَّاسِ مَطْلِيُّ المَسَاعِرِ أَخْشَفُ

فما هي صورة هذا الحب الذي يريده الفرزدق ، لقد دفعت به الرغبة والحاجة الى لقاء حبيبه والانفراد به ، ان يكونا بعيرين قد اصيبا بالجرب فلا يقربهما احد ، فينعم بعد ذلك بلقائها . واذا شئت بعد ذلك ان تتأكد من صحة ما أذهب اليه ، فلك ان تقرأ هذا المقطع من هذه القصيدة التي يقول فيها :

فَمَا زِلْتُ حَتَّى أَصْعَدَتْنِي حِبَالُهَـا

إِلَيْهَا ، وَلَيْلِي قَدْ تَخَامَصَ آخِرُهْ

أُحَاذِرُ بَوَّابَيْنِ قَدْ وُكِّلا بِها ،
وَأَسْمَرَ مِنْ سَاجٍ تَئِطُّ مَسامِرُهْ
فَقُلْتُ : « اُقْعُدا إِنَّ اُلْقِيامَ مَزَلَّةٌ
وشُدَّامعاً بِاُلْحَبْلِ ، إِنِّي مُخاصِرُهْ » (١)
إِذا قُلْتُ : « قَدْ نِلْتُ اُلْبَلاطَ » تَذَبْذَبَتْ
حِبالِيَ فِي نِيقٍ مُخُوفٍ مَخاصِرُهْ (٢)
فَلَمَّا اُسْتَوَتْ رِجْلايَ فِي الأَرْضِ ، قَالَتا :
« أَحَيٌّ يُرَجَّى أَمْ قَتِيلٌ نُحاذِرُهْ ؟ »
فَقُلْتُ : « اُرْفَعا الأَسْبابَ لا يَشْعُرُوا بِنا »
وَوَلَّيْتُ فِي أَعْجازِ لَيْلٍ أُبادِرُهْ
هُما دَلَّتـــانِي مِنْ ثَمانِينَ قَامَةً
كَما اُنْقَضَّ بَازٌ أَقْتَمُ اُلرِّيشِ كَاسِرُهْ

فما هي هذه الزيارة التي يتكلفها الفرزدق ، وما هي هذه الرقة التي يصورها ، ولك ان تتمثل رجلاً كالشاعر ، دميم الوجه ، كبير

(١) مزلة : موضع الزلل . مخاصره : اي شاده على خصره
(٢) نلت : بلغت . مخاصره : مسالكه .

الرأس ، ضخم الجسد ترفعه آنستان بالحبال ، وهو خائف وجل من هذه الابواب التي تحدث ضجة وجلبة اذا فتحت ومن هذين البوابين اللذين وقفا في حراسة هذا القصر . وهذا المقطع ان صور شيئاً فانما يصور هذه الزيارة ، وكيف ارتفع الى محبوبته بالحبال ، وكيف غادرها بالحبال ايضاً ، ونحن لو صدقنا جدلاً بان رجلا كالفرزدق تدليه الحبـــال من ثمانين قامة ، وتساعده على ذلك حسناوان ، فأين تريد ان نلمس الغزل في هذه الابيات ، واين هو الحوار في هذا الشعر ، وما هو الاحساس الذي يخالج قلب القارىء اذا تفهم هـــذه المعاني الوصفية ، واية صورة من شعر الفرزدق توازي هذه الصورة في شعر عمر :

فَحَيَّيْتُ إِذْ فَاجأْتُهـــا ، فَتَوَلَّهَتْ
وكَادَتْ بِمَخْفُوضِ ٱلتَّحيَّـــةِ تَجْهَرُ
وَقَالَتْ وَعَضَّتْ بِٱلْبَنانِ : « فَضَحْتَنِي !
وَأَنتَ ٱمْرُؤٌ مَيْسُورُ أَمْرِكَ أَعْسَرُ ! »
فَقُلْتُ لَهَا : « بَلْ قَادَنِي ٱلشَّوْقُ وٱلْهوى
إِلَيْكِ ، وَمَا عَيْنٌ مِنَ ٱلنَّـــاسِ تَنْظُرُ »
فَقَالَتْ ، وَقَدْ لَانَتْ وَأَفْرَخَ رَوْعُهَا :
« كَلَاكَ بِحِفْظٍ رَبُّكَ ٱلْمُتَكَبِّرُ ! »

«فَأَنْتَ ، أبا ٱلْخطّابِ ، غَيْرَ مُدَافِعٍ ،
عَلَيَّ أميرٌ ، مَا مَكَثْتَ مُؤَمَّرُ »

قلت اية صورة من شعر الفرزدق توازي هذه الصورة التي يعرضها عمر في رائيته القصصية ، ألا ترى بعد ذلك ان هذا الغزل الرقيق وان هذا الاسلوب القصصي هو طابع عمر ابن ابي ربيعة.

ولكن يجدر بنا ونحن نقرر ذلك ان لا يغرب عن بالنا بعد ان عرضنا هذه النماذج من شعر الشعراء الجاهليين ان نغفل عن قصيدة المنخل اليشكري في المتجردة زوجة النعمان ، قلت في المتجردة ولم اقل في وصفها ، لأن اليشكري هذا يحاول ان يخرج بالشعر من نطاق الوصف الى نطاق تصوير الشعور والاحساس وهذه العلاقة التي قامت بينه وبين صاحبته ، ولكن لا يجوز ان نعتبر اليشكري شاعر هذا الباب ، وصاحب هذا الفن لأن القصيدة في جملتها ليست خالصة ، وبالتالي ليس لليشكري سواها في هذا الموضوع :

وَلَقَدْ دَخَلْتُ على الفَتَا
ةِ ٱلخِدْرَ في ٱلْيَوْمِ المَطِيرِ
ٱلْكَاعِبِ الحَسْنَاء تَرْ
فُلُ في الدِّمَقْسِ وَفي ٱلْحَرِيرِ

فَدَفَعْتُها فتدافعتْ

مَشْيَ القَطاةِ إلى الغَديرِ

وَعَطَفْتُها فَتَعَطَّفَتْ

كَتَعَطُّفِ الظَّبْي الغَريرِ

فَتَرتْ وَقالتْ : يا مُنَخَّلُ

ما بجِسمِكَ مِنْ فُتُورِ

مَا شَفَّ جِسْمِي غَيْرُ حُبِّكِ

فَاهْدَئي عَنِّي وسيري

يا هِنْدُ هَلْ مِنْ نائِلِ

يَا هِنْدُ لِلْعَانِي الأَسيرِ

وَأُحِبُّها وَتُحِبُّني

وَيُحِبُّ نَاقَتَها بَعيري

فهذه الأبيات لا شك انها ارق ابيات الحب الجاهلي وابعدها عن تصوير ما لا علاقة له بالحب القائم بين الشاعر والمتجردة ، وهي كما ترى ليست ذكرى ، وليست وصفاً وليس فيها من الاسلوب الجاهلي الذي عرفناه في معلقتي امرىء القيس وطرفة ما

يدل على انها تمت الى الاسلوب الجاهلي بصلة ، وليس فيها بكاء على الحبيب المرتحل ، او على اطلال دياره الباقية ، فهي تصوير لعلاقة قائمة يحسها الشاعر ويعيش لها ، وينشدها في هذا الشعر الرقيق الجميل ، ونحن لا ننكر ان القصيدة تكاد تمت بصلة قوية الى روح العصر الأموي ، اي الى الغزل الاموي والى الاسلوب القصصي بصلات متينة ، ولا شك ، ان هذه القصيدة في المتجردة محاولة جدية نحو الخروج بالحب العربي من طور الذكرى والوصف الى طور تصوير الشعور والغزل ويتجلى ذلك في القصيدة جميعا ، ويبدو في اسلوبها القصصي – وان لم يوفق في عرض قصيدة قصصية تامة – فالقصيدة تصوير للقـــاء بطابع قصصي ، ففي البيت الاول يبين الشاعر كيف دخل الخدر على الفتاة ، ثم يصف حسناءه باقتضاب فيصورها من الناحيتين الجسمية والحياتية فهي لعوب حسناء ، مترفة ، ترفل بالحرير وبهذه الاصناف الممتازة التي كانت تصنع في الشام ، ثم يعرض الى علاقته بها وكيف دفعها فتدافعت ، وكيف عطفها فانعطفت دون ان تحس في العرض ما ينبو عنه السمـــع ، ودون ان تجد تكلفا او صناعة فيما يعرض لك من شعر ، وما يصور لك من لقاء ، ولعلك تتحسس هذا الحوار الذي دار بينهما في هذا اللقاء ، ولا اشك في انك لمست فيه روح الدفء ، والشعور المتبادل ، وانك وجدت في هذا الحوار ما لم تجده عند الفرزدق في ذلك المقطع الذي عرضناه عليك من قصيدته ذات الاسلوب القصصي .

اذاً فأبيات اليشكري تعرض باسلوب قصصي ، فالبيت الاول

هو المقدمة في هذه القصيدة ، والثاني في التعريف بهـــذه الحسناء والابيات الاخرى هي الغرض ، ولعل هذا البيت :

فَتَرَتْ وقَالَتْ يا مُنَخَّ

لُ ما بجِسْمِكَ مـن فُتُورِ

قلت ان هذا البيت يصح ان نعتبره العقدة في هذه القصيدة القصصية ، ويتابع الشاعر وصف اللقاء في حوار دار بينه وبين حسنائه حتى يعرض لك الخاتمة ، بقوله :

وَأُحِبُّهَـــا وَتُحِبُّنِي

وَيُحِبُّ نَاقَتَها بَعِيرِي

ونحن وان تكلفنا هذا البيت الذي سميناه عقدة ، لأننا لمسنا فيه ذروة الحوادث في هذا اللقاء .

فهذه القصيدة اذن محاولة جدية من اليشكري للخروج بالحب العربي من باب الوصف الى باب الغزل ، ونحن مع ذلك لم نعتبر اليشكري شاعر هذا الباب ، وصاحب هذا الفن ، وانما هي كما اسلفت مجرد محاولة موفقة .

وصفوة القول ان شعر هؤلاء الجاهليين الذين عرضنا نماذج من شعرهم ودرسناها ، والذين لم نعرض لهم شيئاً ، واخذنا شعرهم قياسا ، لا يتعدي وصف الجسم ، وانه بعيد عن وصف الشعور والاحساس وتصوير ما يعاني المحب من شوق وما يتحمل من عناء ، وهو في جملته اذا خرج عن نطاق الوصف ، ذكرى وصور لأيام

ماضيات ، وهو توطئة للقصيدة ، ومذهب درج عليه الجاهليون جميعاً وقد حدده امرؤ القيس كما اشرت في قوله :

مَاذا عَلَيْه إنْ ذَكَرْتُ أَوانِساً

كَغِزْلانِ رمل في محَارِيب أقوالي .

وقد اعتمدوه كذلك ليستميلوا القلوب الى استماع قصائدهم ، وهم في شعرهم هذا لا يتعدوا الناحية المرئية مع العلم انهم كانوا يعانون عواطف الحب في افئدتهم لأن هذه العاطفة كانت ولا تزال صادرة عن اعماق النفس. وبعبارة ادق ان شعر الجاهليين كان بعيداً عن الغزل .

بيد ان عمر ابن ابي ربيعة خرج بالحب العربي من نطاق الوصف الى نطاق الغزل والشعور ، وأوقف حبه على الجمال بمعناه المطلق فلم يقصر حبه على امرأة واحدة ، انما احب جملة من النساء لأنه احب فيهن الجمال ، وحاول مغازلة جملة من النساء ، فوفق معهن الى ابعد حدود التوفيق ، وكان يعرض ابياته الغزلية في اسلوب قصصي رائع اختص به ، واحتكره احتكاراً ولم يجار به احداً ، ولم يع من قيثارة امريء القيس ، او من قيثارة اي شاعر آخر لحناً ، الا ما اعتاد الشعراء ان يقفوا عليه من شعر سواهم ، وان قصائده كلها في الغزل حتى قال : « انا لا اصف الا النساء » وعمر في ذلك « يحقق صورة الانسان العاشق حين يكافح ويصارع معاً فيبلغ اكثر صور الحياة حرية ، اي اكثرها سمواً ، فيغدوا بذلك ادنى الى السماء ، ويتألف من الاختيار والكفاح عنصرا

الحب الاساسيين ، وليس معنى ذلك ان عمر ابن ابي ربيعة كان افلاطونياً في حبه فهو مع خروجه بالحب العربي في الادب من الوصف الي الغزل ظل يلتمس الحب في الارض لا في السماء على قول الدكتور طه حسين[1] وهو في شعره جميعا كان صاحب هذا المذهب ، لذا اعتبره النقاد رئيس طبقة هؤلاء الشعراء الغزلين من سكان الحضر ، بازاء جميل رئيس طبقة العذريين من سكان البدو اصحاب الحب الافلاطوني في الادب العربي .

ومهما يكن من امر ، فأنت عندما تقرأ عمر ابن ابي ربيعة تحس بالغبطـــة تساور نفسك ، والأمل يراود شعورك ، والابتسامة تطفو على ثغرك ،وتطمئن مع كل ذلك الى هذا الشعر الجميل الأخاذ يعرضه عليك ابن ابي ربيعة عرضا فنياً سلساً رقيقاً بلحن جديد قد ابتكره ، وباسلوب قصصي قد اختص به .

---

(١) حديث الاربعاء ج ١ عمر ابن ابي ربيعة صفحة ٣٧٢ وما يليها .

انواع الغزل

سبق لنا ان عرضنا في الفصول السابقة تصنيفاً للغزل على ضوء تصنيف ستندال للحب . واتماما للفائدة في هذه الدراسة سنحاول ان ندرس هذا التصنيف الجديد في الادب العربي بين الجاهلية والاسلام ونعرض نماذج لأنواع الحب العربي التي لم ندرسها باسهاب .

الجاهليون والحب

لم يخرج شعر الجاهليين في الحب عن الوصف والذكرى كما قدمت فهو من هذا القبيل لا يمت الى الغزل بصلة مـــا ، ولا يعدو الصناعة الشعرية يوطئون بها لمعلقاتهم او لقصائدهم ، هـذه التوطئات التي كانت في الغالب على نهج معين لا تتعداه من وصف الحبيبة وتصوير جمالها ، وقسمات وجهها كقول طرفة بن العبد :

وَوَجْهٌ كَأَنَّ ٱلشَّمْسَ أَلْقَتْ رِدَاءَهَا
عَلَيْهِ نَقِيُّ ٱللَّوْنِ لَمْ يَتَخَدَّدِ

وقد يتجاوزون ذلك كله الى وصف ديار الحبيبة الدارسة بشيء من « انكسار النفس » وشعور ساذج بلوعة الفراق ، وقد وفقوا في هذا اللون من الشعر الى اللفظ العذب دون المعنى العميق ، ودون ان يثيروا مشاعر حبهم ادعية ، وحنيناً ، وشوقاً على النحو الذي بعثها عليه الاسلاميون والمحدثون من بعد ، فالشاعر الجاهلي لم يقو على تصوير عاطفته تصويراً دقيقاً لأن الشعور ؛ شيء وجداني وهو انما

يتأثر بالشيء المحسوس بالمنظر الماثل امامه فيصوره في اتقان ويصوره برسوم ملموسة، ويستخدم في اخراجه تشابيه من بيئته ومن محيطه ليدل على تلك الصورة التي انطبعت في مخيلته والتي يريد ان يصفها، ولو لم تنسجم هذا التشابيه مع روح الموضوع، ومع جلال الغرض، وهيبة الذكرى :

تَرَى بَعَرَ الأَرآمِ فِي عَرَصَاتِهَا
وَقِيعَانِهَا كَأَنَّهُ حَبُّ فُلْفُلِ

ونحن لا ننكر ما لهذه الابيات التقليدية من روعة ، ومن جمال فني صادق يعبر عن امل الشاعر وامله في موقف عزيز عليه، يسترجع عنده ايامه او جمال هذه الايام التي عاشها شوقاً ، وحنيناً ولقاء ، ولكن ننكر على هذا الشعر الجاهلي ان يكون غزلاً بالمفهوم الذي حددناه في مطلع هذه الدراسة ، فالحب على هذه الصورة التي يعرضها الجاهليون والمقلدون من الاسلاميين لا يُمثل حبـــا خاصاً ، او لذة خاصة ولكنه يمثل كثيراً من المعاني العامة التي يعيشها المحبون ، فهو هنا يقصد الفن لذاته ، والموضوع لذاته ، والخيال لذاته ولا يتعداه الى بعث تلك الكوامن الخلاقة التي يعانيها المحبون والتي تأخذ عليهم نفوسهم حينا ، وحياتهم حينا آخر ، واذا ابتعدت هذه الصور عن تصوير الشعور الـــكامن والاطياف الفاتنة التي تراود هؤلاء المحبين جاء هذا الشعر فاتراً ضعيفا لا صلة له بالنفس الانسانية في موضوع لا يبلى . ولعل

شاعرنا المتنبي حدد هذه الغاية من شعر الجـــاهليين والمقلدين من الاسلاميين عندما قال :

إِذَا كَانَ مَدْحٌ فَالنَسِيبُ المُقَدَّمُ
أَكُلُّ فَصِيحٍ قَالَ شِعْراً مُتَيَّمُ

اذن لم يكن هؤلاء الشعراء من الجاهليين والاسلاميين المقلدين متيمين على قول شاعرنا المتنبي ، انما كانوا يسعون وراء النسيب من باب الصنعة الشعريه ليس إلا ، ونحن لا نجزم بأن هؤلاء جميعاً لم يتعدوا هذا المنهج التقليدي ، فعبيد بن الابرص تحدث عن طيف الحبيب قبل ان يتحدث عنه عمرو بن كلثوم في مطلع معلقته فيمن احب قبل عمر ابن ابي ربيعة ، وجميل بن معمر ، و كثيّر ولكن الاسلوب العام عند هؤلاء تقليدي .

وهاك نماذج من هذا الشعر التقليدي الذي حددنا اصوله في الادب .

من شعر امرىء القيس :

أَلاَعِمْ صَبَاحاً أَيُّهـــا الرَّبْـعُ فَانْطِقِ
وَحَدِّثْ حَدِيثَ الرَّكْبِ إِنْ شِئْتَ فاصْدُقِ
وَحَدِّثْ بِأَنْ زَالَتْ بِلَيْلٍ حُمُولُهُمْ
كَنَخْلٍ مِنَ الأَعْراضِ غَـيْرِ مُنَبَّقِ (١)

---

(١) زالت بليل حولهم : ترحلوا ليلا . كنخل من الاعراض : كالنخل النابت في اعراض الحجاز وهي رساتيقه. غير منبق: غير مستو ولا مهذب اي متفرق.

جَعَلْنَ حَوَايَا واقْتَعَدْنَ قَعَائِداً
وَحَفَّفْنَ عَنْ حَوْكِ العِرَاقِ المُنَمَّقِ (١)

وَفَوْقَ الحَوَايَا غِزْلَةٌ وَجَآذِرٌ
تَضَمَّخْنَ مِنْ مِسْكٍ ذَكِيٍّ وَزَنْبَقِ (٢)

فَأَتْبَعْتُهُمْ طَرْفي وَقَدْ حَالَ دُونَهُمْ
غَوَارِبُ رَمْلٍ ذِي أَلاءٍ وَشِبْرِقِ (٣)

عَلَى إِثْرِ حَيٍّ عَامِدِينَ لِنِيَّةٍ
فَحَلُّوا العَقِيقَ أَوْ ثَنِيَّةَ مُطْرِقِ (٤)

فَعَزَّيْتُ نَفْسي حِينَ بَانُوا بِجَسْرَةٍ

---

(١) الحوايا : البراذع . وحففن : يقال : هودج محفوف بالديباج . حوك العراق المنمق : ثياب من نسيج العراق الموشاة .

(٢) غزلة وجآذر : غزلان واولادها من الجآذر . شبه النساء في الهوادج بهن . تضمخن : تعطرن . والزنبق : بصل من نور اصفر حسن الرائحة .

(٣) غوارب رمل . أعالي هضاب . ذو الاء وشبرق ، الألاء : شجر يشبه الآس لا يغير في القيظ وله ثمر يشبه سنبل الذرة . والشبرق : الضريع ، وهو نبات تأباه الدواب لخبثه

(٤) عامدين لنية : قاصدين لوجه . العقيق : واد بعارض اليمامة .

أَمُونٍ كَبُنْيَانِ اليَهُودِيِّ خَيْفَقِ (١)
وَبَيْتٍ يَفُوحُ المِسْكُ في حَجَرَاتِهِ
بَعِيدٍ مِنَ الآفَاتِ غَيْرِ مُرَوَّقِ (٢)
دَخَلْتُ عَلَى بَيْضَاءَ جُمٍّ عِظَامُهَا
تُعَفِّي بِذَيْلِ الدِّرْعِ إِذْ جِئْتُ مَوْدِقِي (٣)
وَقَدْ رَكَدَتْ وَسْطَ السَّمَاءِ نُجُومُهَا
رُكُودَ نَوَادِي الرَّبْرَبِ المُتَوَرِّقِ (٤)
وَقَدْ أَغْتَدِي قَبْلَ العُطَاسِ بِهَيْكَلٍ
شَدِيدٍ مَشَكِّ الجَنْبِ فَعْمِ المُنَطَّقِ (٥)

---

(١) حين بانوا : حين بعدوا عن عيني • بجسرة : بناقة قوية • امون متينة كحصن اليهودي •

(٢) غير مروق : ليست له اروقة •

(٣) جم عظامها : يصفها باللين والبضاضة • تعفى بذيل الدرع : تسحب قيصها على اثري فتمحوه • المودق : اثر قدمي •

(٤) نوادي الربرب المتورق : وقوف قطيع الظباء بعد تناولها ورق الشجر •

(٥) اغتدي : اخرج بفرسي • قبل العطاس : قبل انبلاج الصباح بهيكل بجواد فعم المنطق : ممتليء مكان النطاق ، وهو الحزام ، ويريد به الجوف •

لبيد (١)

عَفَتِ الدِّيارُ مَحَلُّها فَمُقامُها
بِمِنًى ، تَأَبَّدَ غَوْلُها فَرِجامُها (٢)
فَمَدافِعُ الرَّيّانِ عُرِّيَ رَسْمُها
خَلَقاً ، كَما ضَمِنَ الوُحِيَّ سِلامُها (٣)

---

(١) هو ابو عقيل لبيد بن ربيعة العامري وقد عرف ابوه بالسخاء وبالكرم وبحدبه على الفقراء حتى سمي بـ « ربيعة المقترين » وقد نشأ شاعرنا على كرم والده وسخائه . وقيل انه نذر في الجاهلية ان لا تهب الصبا إلا أطعم وظل على نذره في الاسلام . ويجمع الرواة على ان لبيداً عاش ما ينوف عن مئة وعشرين سنة ، تسعون منها في الجاهلية ، وكان شاعراً مجيداً ، بدت نجابته منذ حداثة سنه ، وتعتبر معلقته الرابعة بين المعلقات .

(٢) تأبد : أبوداً وتأبدت تأبداً إذا توحشت ؛ والأوابد : الوحوش . الغول والرجام : جبلان .

(٣) المدافع : مجاري الماء : عرى رسمها خلقاً : اي ارتحل عنه فعري بعد ان اخلق لسكونهم إياه . الوحي ج وحي وهو الكتاب والمعنى : ان آثار هذه المنازل كأنها كتاب في حجار ، لأنه لا يتبين من بعيد لأن نقشه ليس بشيء مخالف للونه فإنما يتبين لمن يقرب منه .

دِمَنٌ تجرّمَ بعْــدَ عَهْدِ أنيسِهـا
حِجَـجٌ خَلَوْنَ حلالُها وَحرامُها (١)

رُزِقتْ مرابيعَ النُّجومِ ، وَصابَها
وَدْقُ الرّواعدِ ، جَوْدُها فرِهـامُها

مِنْ كُلِّ سارِيةٍ وَغـادٍ مُدْجِنٍ
وَعشيّةٍ مُتجـاوِبٍ إرْزامُها (٢)

فَعلا فُروعُ الأيْهقانِ وَأطْفلتْ
بالجلهتَيْنِ ظِباؤُهـا وَ نعامُها (٣)

والعِينُ ساكِنـةٌ على أطْلائِهـا
عُوذاً ، تأجّلُ بالْفضاءِ بِهامُها (٤)

---

(١) دمن : ج دمنة وهي الآثار . تجرم : تقطع . الحجج : السنون . حلالها : يريد الشهور الحلال وهي ثمانية ما عدا الشهور الحرام وهي اربعة : رجب ؛ وذو القعدة ؛ وذو الحجة ؛ والمحرم . والمعنى أن هذه الديار لايدخلها آمن ولا خائف لخرابها .

(٢) سارية : تجيء ليلا . مدجن : من الادجال وهو الباس الغيم السماء . غاد : السحاب ارزاقها : ج رزمة اي صوت شديد .

(٣) فروع الايهقان معناه علا السيل فروع الايهقان ، اي فعاشت الارض وعاش ما فيها .

(٤) العين : البقر . اطلاؤها : اولادها . والعوز : الحديثات للنتاج وتأجل تصيد آجالا الواحد اجل وهو القطع من الظباء ، والبقر ، والشاء .

وَجلا السُّيُولُ عن الطُّلُولِ كَأَنَّها
زُبُرٌ تُجِدُّ مُتُونَهَا أَقلامُهـــا (١)

وبما قاله الأخطل (٢) في الغزل التقليدي

خَفَّ ٱلْقطينُ فَرَاحُوا مِنْـكَ أَوْ بَكَرُوا
وَأَزْعَجَتْهُمْ نَوًى فِي صَرْفِهَـــا غِـيَرُ (٣)
كَـأَنَّنِي شَارِبٌ يَوْمَ أُسْتُبِـدَّ بِهِـمْ
مِنْ قَرْقَفٍ ضَمِنَتْهَا حِمْصُ أَوْ جَـدَرُ (٤)
جَادَتْ بِهَا مِنْ ذَوَاتِ ٱلْقَارِ مُتْرَعَـةٌ
كَلْفَاءُ يَنْحَتُ عَنْ خُرْطُومِهَـا ٱلْمَـدَرُ (٥)

---

(١) الزبر : الكتاب . يعني ان السيل كشف آثار هذه الديار .
(٢) هوغياث بن غوث التغلبي شاعر بني امية
(٣) بكروا ، او ابتكروا : اي ذهبوا . نوى : مصائب
(٤) استبدبهم : اي غلب عليهم وذهب بهم • القرقف : من اسماء الخمر التي تأخذ شاربها رعدة لشدتها • حمص اوجدر : موضوعان بالشام .
(٥) المترعة المملوءة • الكلفاء : الخابية في لونها كلف ، ينحت عن خرطومها المدر : اي يفض ختام الطين .

لذٌّ أَصَابَتْ صُحَيَّاهَا مُقَاتِلَهُ
فَلَمْ تَكَدْ تَنْجَلِي عَنْ قَلْبِهِ ٱلْخُمَرُ(١)

شَوْقاً إِلَيْهِمْ وَوَجْداً يَوْمَ أُتْبِعُهُمْ
طَرْفِي وَمِنْهُمْ بِجَنْبِي كَوْكَبٍ زُمَرُ(٢)

ومن قول جرير (٣)

أَتَصْحُو أَمْ فُؤَادُكَ غَيْرُ صَاحِ
عَشِيَّةَ هَمَّ صَحْبُكَ بِالرَّوَاحِ

يَقُولُ العَاذِلَاتُ عَلَاكَ شَيْبٌ
أَهَذَا ٱلشَّيْبُ يَمْنَعُنِي مَرَاحِي

يُكَلِّفُنِي فُؤَادِي مِنْ هَوَاهُ
ظَعَائِنَ يَجْتَزِعْنَ عَلَى رِمَاحِ

---

(١) يقال رجل لذ ورجال لذون ولذاذوهو الحسن الحديث والمنادمة. مقاتل الانسان المواضع التي اذا اصيب فيها قتل.

(٢) كوكب: اسم موضع. والمعنى: اي منهم جماعات بجنبي كوكبي.

(٣) هو جرير بن عطية الخطفي وينتهي الى كليب وكليب من يربوع من تميم من مضر وينتهي نسبه الى عدنان، وقد عاصر الأخطل والفرزدق ووقعت بينه وبينهم تلك المهاجاة الطويلة التي استمرت ردحاً طويلا من الزمن.

ظَمَائِنُ لَمْ يَدُنَّ مَعَ ٱلْنَّصَارى
ولا يَدرينَ مَا سَمكُ القِرَاحِ

فَبَعْضُ ٱلْمَاءِ مَاءُ رَبَابِ مُزنٍ
وَبَعْضُ ٱلْمَاءِ مِنْ سَبَخٍ مِلَاحِ

سَيَكْفيكَ ٱلْعَواذِلَ أَرْحَبِيٌّ
هِجَانُ اللَّونِ كَٱلفَرْدِ الدَّيَاحِ (٢)

---

(٢) وقد يطول بنا العرض لو ذهبنا هذا المذهب في استعراض مثل هذه التوطئات التقليدية في ادب الجاهليين والاسلاميين . فنكتفي بهذه النماذج لأعلام الشعر في العصرين .

مصادر البحث :



الأغاني : لأبي الفرج الاصبهاني ١ : ٣٠-٢ : ١٩-٨ : ٦٢

العقد الفريد : لابن عبد ربه ١ : ٣٢٦

الشعر والشعراء : لابن قتيبة ١ : ٣٤٨

طوق الحمامة في الالفة والألاّف : لابن حزم

كتاب فقه اللغة : للثعالبي المطبعة الكاثوليكية بيروت

المخصص : للزجاجي

جامع البدائع : لابن سينا : الرسالة الثامنة ، مطبعة السعادة : القاهرة

رسائل الجاحظ : في العشق والنساء .

دائرة المعارف الاسلامية .

وفيات الاعيان : لابن خلكان

حب ابن ابي ربيعة وشعره : الدكتور زكي مبارك

عمر ابن ابي ربيعة وعصره : الدكتور جبرائيل جبور ج ١-٢-٣

حديث الاربعاء : الدكتور طه حسين ج ١

الروائع : الاستاذ فؤاد افرام البستاني
امرؤالقيس .طرفة وليبد.عنترة.
عمر ابن ابي ربيعة : « سلسلة اقرأ » الاستاذ عباس محمود العقاد
عمر ابن ابي ربيعة المخزومي : الدكتور عمر فروخ
ادباءالعرب في الجاهلية والاسلام : الاستاذ بطرس البستاني
وهل يخفى القمر؟ : الاستاذ رئيف خوري
الحب العذري : الاستاذ احمدعبد الستار الجواري
الغزل عند العرب : الاستاذ حسان ابو رحاب
الشعراءالاعلام(العصر الجاهلي) : للمؤلف

الدواوين الشعرية :

ديوان امرىء القيس — طبعة مطبعة الاستقامة القاهرة تحقيق وشرح حسن السندوبي
ديوان عمر ابن ابي ربيعة — طبعة المكتبة الاهلية بيروت ـ طبعة مطبعة صادر بيروت
دايون عنترة بن شداد — المكتبة التجارية الكبرى ـ القاهرة تحقيق وشرح عبد المنعم عبد الرؤوف شلبي
ديوان الأخطل — المطبعة الكاثوليكية ، بيروت
ديوان الفرزدق — عيسى بابي الحلبي
شرح القصائد العشر — للتبريزي

فهرس الكتاب





صدر عنها :

- **عبقرية الخيال في رسالة الغفران**: للاستاذ عمر انيس الطباع

دراسة مسهبة في خيال المعري الخلاّق ، على ضوء نظرية « ريبو » في علم النفس ، تعرض فيها المؤلف للون «الغفران» الادبي وأثره في « الكوميديا الالهية » لدانتي الايطالي ، و « الفردوس المفقود » لملتن الانجليزي ، بالاضافة الى بحث مستفيض حول نفس أبي العلاء الملحمي . الثمن ١٧٥ ق.ل.

تحت الطبع :

- **شيطان الجسد** :

القصة الاولى في سلسلة من روائع القصص العالمي التي تصدرها الدار تباعاً مساهمة منها في رفع المستوى الثقافي العام في العالم العربي .

- **في معبد القلب** :

قصة كل قلب عابد .. وجد في الجمال إلهامه الاسمى يعرضها المؤلف في مجموعة من المقطوعات الادبية التي تصور «شاعرة» الحب الانساني في صلوات وأدعية روحية خالصة .

- **لاجئة** : قصة تصور مأساة فتاة من فلسطين .

الثمن ٢٠٠ ق . ل . مطابع دار الكشاف ـ بيروت

